إشراقات أدبية

رواية

٤

الدم.. وشجرة التوت الأحمر
(القبو)

محمد عبد الله عيسى

دراسة

محمد محمود عبد الرازق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الاخراج الفنى والغلاف : محمد قطب

الدم .. وشجرة التوت الأحمر
(القبو)

-١-

(أمين مسعود) ..

المطلوب منك أن تحرسهم ، يموتون فى خوفهم ، تعيش فى هواجسك ، لا تملك القرار . فقط . تحنى الرأس سمعا وطاعة . لا تعى الأمور حولك ، هكذا يعتقدون ويفرحون لوجودك بينهم . يتوجونك وشاح الدجل . يفرشون تحت أقدامك أساطير البطولات، الفتوحات الكاذبة ، عنتر أنت .. لا .. بل صلاح الدين .. لا .. لا أنت انسان لم يولد مثلك .. فى يدك خلاص العالم .

يسوقه الذهول الذى داهمه ، يترنح فى رائحة الكحول ، يضرب شبكة الطرقات الخاوية ، يلقى السلام على الجدران المهزومة حوله .. ومسام الأرض ترتشف وقع الخطوات .

هنا .. فى هذا الميدان الواسع .. كان الصغار ، والكبار يتقاذفون الكرة (الكاوتشوك) الصغيرة .. يتبادلون المراكز فى خفة بالغة ، (خذ وهات) ، والأحلام الوردية تفرز أصباغها على الأيام الخضراء .

شاهرا سيفه فوق نصبه التذكارى يقف عرابى يحرس

الميدان ، عيناه فى كل الاتجاهات ، لا تغفل أبدا وحده يعرف أن الحملة قادمة ، لن يربض لهم عند (التل) تلك المرة ٠

انزل الينا يا رجل ، شمر ساعديك ، ارفع معنـا ، الأشـلاء الصغيرة المطموسة الملامح فى طيات الكتب الممزقـة ، السـطور ممزوجة الدماء ، والحروف البريئة تطل من سباتهم الأيدى ، تدين لعبة الموت جاءوا من المهجر البعيد يحملهم قطار اللاعودة ، يهرعون الى مراتعهم ، ملاعبهم ، مدارسهم ، يتسلمون أشياءهم الصـغيرة كتب ، كراريس ، سلاح التلميذ للغد القـادم فى معسـكرات الايواء ٠

شرشر ٠٠ فلفل ٠٠ عادل ذهب الى المدرسة ٠٠ سعاد ذهبت الى الحديقة ٠٠ الصغار فى طريقهم الى ذويهم ، يهللون ،يرقصون، يصرخون ، يتناثرون فى أشلاء القطار وقذائف الغدر الموقوتة ، المحطة الصرعى تبلع الكارثة فى أحشائها ، يقفز الأبناء فى جوف الحمم النارية ، يتلقفون بقاياهم ، الجثث المصفوفة داخل مسـجد المحطة ٠٠ ارفع معنا الى عربات الاسـعاف ٠٠ دعك من ذراعك يا رجل ما عساك أن تفعل بها ٠٠ فلتسـقط الآن كل الأشـياء المبتورة ٠

لا أحد غيره يستطيع أن يرفع الأمعاء ٠٠ القولونات المتناثرة٠ يقلب طيات السترات الممزقة التى تدثر قطع اللحم الآدمية ٠

يبحث عن الهوية فى كل حين ، يتلقف احداها ، يتفحصها يقلب طياتها ٠

يستخرج عشر بطاقات ، يرفع بقايا السترة باحترام بالغ ، كان لصاحبها دور عظيم ٠

يعود أدراجه من جديد ، يتشبث (بالكوريك) فى يده ،

يرفع بقايا الأشلاء المبعثرة فى أنحاء الساحة ، يجمعها ، يكدسها فى كومات جانبية فوق الرصيف ، يجلس بجوارها ، يحرسها من المخالب ، الأنياب الجائعة (للأموات حرمة) ، لا يذكر من الذى أوعز اليه بتلك الكلمات ..

ـ سيدمرك الكحول يوما .

ـ بل تدمرنى الحقيقة .

ـ تبدو يقظا واعيا .

ـ فى خمرى اكون عملاقا ..

ينتصب واقفا فى اجلال ، يرفع أكوامه ، يشيعها فى خشوع الى الحاوية الكبيرة ، يملؤها بسرعة فائقة قبل أن تنفجر رائحة الموت ، يسرع الى كابينة السائق ، يجلس عن جواره ، تنطلق العربة تحت الوهج الازرق المخنوق ، تحملهم الى الحفرة الكبيرة العميقة فى (مدافن الشهداء) ، يضغط السائق (الزر) أمامه ، يرفع قلاب العربة ، يفرغ حمولة الطين والدم ..

ـ سنعود يوما الى زرع أشجار الصبار فى تلك الناحية حول المقبرة الجماعية .

ـ تبدو فيلسوفا فى رائحة الكحول .

ـ قررنا هذا فى اجتماعنا الاخير .. بالاتحاد الاشتراكى حتى يعود الأطفال الى ...

تحمله الاقدام المترنحة الى مسكنه بأطراف المدينة .. (الحكر) .. هذا المرتع الكبير ، كان يضم فى حناياه التائهين تحت الشمس ، الوافدين من النجوع البعيدة .. قبلى .. بحرى .. وبقايا نفايات صدئة من زمن السخرة الأخرس .

في تلك الغرفة التى تصدعت أركانها الحجرية تحت (دانات) المدفعية الثقيلة ٠٠ كان ميلاده الأول ، ومثوى كل من وضـــعته البطن بعده ، هكذا لقنته أمه ذات يوم ٠٠

يخرج فرشه البالى ، حصيرة ، وسادة تحمـــل عفونة أيامه يفترش مساحة الأرض أمام البيت ٠

– حتى لا تنالك شظايا القذف ٠٠ ألق بنفسك داخل حفرتك البرميلية ٠٠

اجلس القرفصاء ٠٠ اخف ملامح الوجه فى طيات الأرجل ٠٠

– هل يسعفنى (كوريك) فى حجم الكف ٠٠

– الكوريك الميدانى يا أخوانى ٠٠ للاستعمال أثناء العمليات فقط عندما تتهيأ ظروفكم ٠٠ أحفروا ما شئتم ٠٠ يغرس (الكوريك) بقوة فى بطن الأرض ، يرفع ناتج الحفر الى جوانب الحفرة العميقة يسرع ، يطلب العون عند (قائد) القوة العسكرية الرابضة على مقربة منه ، بعض العروق الخشبية ، الحديدية فوقها ألواح الصاج الاسبستوس ، ماسورة منحنية ، تسرب هواء السطح الى راكضى الاعماق ، يسمونها (هواية) ، ثم الردم من ناتج الحفر ، يخفى ملامح الخندق ، الملجأ المخبأ ، الأسماء كثيرة عندهم ، اسم واحـد لا يحيد عنه ٠٠ المقبرة ٠٠

كانوا يملأون الساحة القفراء أنتشارا ، يجرون فى كل اتجاه أمام بيوتهم المريضة ، يبعثرون ضحكاتهم البريئة ، ينقشـــون وداعهم فوق الأرض ، يتسابقون الى (حنفية) المياه العمـومية ، اليتيمة ، يرتشفون منها قبل الجفاف والخروج ، يلتقى عنـدها نسوة الناحية ٠

يغسلن ، يثرثرن .. (عندما تكبر « ست الحسن » تتزوج « الشاطر حسن ») .

وتموت الاحلام فى الصمت الذى يطبق على صدر الحى فى غياب أبنائه ..

عندما أحس بالوحدة تقتله فى نزوح المدينة الأكبر هرع الى زملائه فى المرفق الكبير حيث يقبعون فى أحد المبانى الضخمة .

تقدم مع رفاقه من بحرية القناة الى تشكيلات المقاومة الشعبية بعد أن أصيب (اللنش) الذى يقوده اصــابة مباشرة فغرق فى ساعات الحرب الأولى ، بكى المدينــة الخاليــة الجثث التى يجمعهــا اللنش الذى غرق ، غلق القناة ، رحلات الســـفن الكبيرة التى أفتقدها ، كانوا يهدونه زجاجات الخمر الثمينة وعلب الســجائر الراقية أثناء عمليات نقل المرشدين .

فى البدء كان يبيع كل ما يصل الى يده من السفن الكبيرة . لماذا لا تتذوقها ؟ حاول يا رجل .. وغرق فى المحــاولة ، حتى تسربت عدوى ادمانه الى رفاق أيامه من أبناء الحى الفقير ..

ولأنهم لا ينقلون المرشدين الى السفن الأجنبية ، لا يملكون أسبابه ، كان الكحول طريقا سهلا الى عالمهم المترنح .

عينه اعضاء المكتب التنفيذى رئيسا لجماعة جمع الجثث فى القطاع الاوسط بعد أن قسمت المدينـــة الى قطاعات ووزعـت المسئوليات كما تم تكليفه مع فريق من زملائه باصــلاح وصيانة بعض المعدات البحرية الخاصة بالمرفق الكبير والتى أصـــيبت فى العمليات الحربية .. لتكون جاهزة للاستخدام مرة أخرى عنـــد الحاجة ، اذن .. فليكن الكحول فى أيام النار والدم ..

تبكى يا (أمين) ‥ عندما واريت جسد أمك ، تجمدت الدموع فى المآقى ، لم تذرف سوى ضحكات هستيرية ، ترج الليل يسكب نجومه على الأرض ، تركلها فى كل اتجاه ، تريد أن تظهر الطريق تفسحه للحفاة الفارين ٠

– حصان أصيل ٠ من عائلتكم يا (سعد) ؟

تضحك ، يضحك كثيرا لمداعبتك اللاذعة ، يعرفك منذ الزمن الأخضر ، تلعبان ، تجربان فى الأيام ، تحلم أن تكون فارسا تملك أسباب القوة ، يحلم أن يملك حصانا حتى يحترف مهنة الأب ٠

هكذا أوصاه قبل الرحيل ٠

– تنام والحصان فى مكان واحد يا (سعد) ؟

– لا أصدقاء لى ‥ سواك والحصان ٠

ولأنها الحرب ‥ (أقدامك تمتزج فى حوافره) ‥ لا أملك سوى أن أمد القلب عليكم غطاء ‥ أدفن الى جواركم جانبا من ذكرياتى ‥ تبلعكم جميعا حفرة واحدة ٠

– اردم ‥ يا أسطى ‥

– ٢ –

(عباس الطيب) ‥

يسكبون الوهم فى رأسه يتجرعه ، يسكرونه ببعث الروح فى حلمه الميت أبدا ‥

« عباس أفندى » ·· كاتب أول ·

ـ شكرا يا سيدى

ـ معاذ الله يا ولدى ·· لا تلثم اليد ·· أنت هنا العـين ، الرأس فى غيابنا ·· أخوانك أمانة فى عنقك ·· سنهرع اليـك عند الحاجة ·· فقط لا تزعجنا كثيرا بأنبائكم ·· دعنا نذوب قليلا فى المدن البعيدة ·· نبحث فى ضجيجها أمورنا الكبيرة ·· دبر أمورك جميعها ·· فأنت هنا السلطان والملك ··

يضحك أقرانه وهم يرقبونه من الركن البعيد الذى يضمهم ، ينزوى فى ركن قصى فوق سريره المعدنى الصغير ، يسـتند الى الجدار خلفه ، امتص جسده رطوبة المكان ، ·· (روماتيزم) ·· يرتل بعض الآيات ، يختلس النظر اليهم من تحت نظارته ، تثيره قفشاتهم ، يعرف أنه مادة فكاهتهم ، يدفن نظارته فى المصحف أمامه قبل ان تصطدم الأعين ·· تلعب الورق ·· ممنوع ·· رأفـة بنا يا هذا ·· دعنا نقتل الساعات الطويلة العطنة داخل هـذا المكان ·· فرائحة البولينا تتسرب من حولنا تملأ الرئة ··

ضع قروشـك ·· أكواب الشاى تدور بينهم ·· جميعـا يفترشون الارض ·· خذ ·· فرق ·· هات ·· تخسر يا عباس أفندى ·

فى البدء ·· دعونا نبحث عن مكان يعصـمنا من النار ·· فلنضرب من اتجاهات متفرقة ·· نقلب طيات المدينة الخاوية ·· بين الاطلال · وتحت الردم ··

الغناء الراقد فى سبات عميق منذ ودعته الاقدام الصغيرة··

تجرى ·· ترتع ·· تلعب ·· العاب ·· رسم · صـــباح الخـير يا أطفال ·· صباح الخير يا أبله ·· تحيا الجمهورية العربية المتحدة ·· مازال علم الصباح مرفوعا ·· الجدران المرصعة بثقوب القذف تمتص كل الدانات ·· الطلقات ·· المقاعد الصغيرة صرعى تحـت الأسقف المنهارة ··

أفندم ··

بعد معاينة الأدوار الأرضية للمدرسة بغرض أيواء العاملين بالمنطقة ·· وجد أنها ··

(أشارة تليفونية) ··

أيماء الى كتابكم رقم ٦٧ بخصـــــوص المعاينات التى تمت بمعرفتكم المدرسة ·· النوادى الرياضية ·· المبانى الرئيسية ·· نوافق على ما جاء بكتابكم سالف الذكر بعدم صلاحية اســتخدام الأدوار السفلى بها كملاجىء للايواء ·· نرجو الاستمرار فى البحث عن مكان آخر مناسب بعيدا عن أهداف العدو العســكرية ·· واخطارنا فى حينه ··

(توقيع)
نوفل عبد المتجلى
(مدير عام التخطيط)

المبلغ : فيفى ··
المستلم : عباس الطيب

أننا نحسب لزيارتك لنا يا سيدى ، ننتظرك نجمع الأسباب والشكوى نستجديك العون ، نلتف حولك ، نستنشق العطر يفوح من أطراف زيك الوثير ، وحدنا نميز رائحة البارود ، الدم ، البولينا، وتلك الأكاذيب التى تدونها فى مفكرتك ، تخدعنا فى كل مـــرة ‥ (نوفل بك) بينكم الان ٠

ـ لماذا لا تصدقنا القول يا هذا ؟

يصرخ أحــدهم فى وجهه يمتقع لونه ، يفرش ابتســـامة واسعة تغطى مساحة الوجه ٠ يتصدى لكل الاستفسارات الفاضية ‥ أين أنت يا فيفى ‥ تردين عنى هذا الصعلوك ٠ قذفنى بالسهم فى صدرى ٠

ـ نحن هناك يا ولدى ‥ نعيد الحسابات من أجلكم ‥ نقنن ‥ نخطط ‥ نبحث من جديد ‥ الخطط البديلة ‥ الاحـلال والتجديد ‥ وأمور كبيرة ‥ جليلة ‥ جئت أبحثهـــا مع أخى (عباس أفندى) ‥

يهب مذعورا من جواره ، فقد تنبه أخيرا الى فداحة الموقف ‥ لماذا لم تمنعهم من البدء يا غبى ؟

أوغاد أنتم ‥ لا تقدرون ‥ لا تحترمون ‥ لا تفهمـــون الرجل ‥ جاء يأكل معكم ‥ يزوركم ‥ يبحث مشاكلكم ‥ يضحك لكم تصفعونه بالاتهامات ‥ ما ذنبه هو ؟

ـ هرعت اليكم ‥ أريد تقريرا كاملا عن الموقف عندكم ‥ أقسم لكم يأبنائى ‥ أننى لا أستسيغ قاعات الاجتماعات الكبرى بالعاصمة ‥ لكن من أجلكم أنتم سأذهب أعرض مشــــاكلكم ، مطالبكم ‥ فى اجتماع مجلس الادارة هناك ‥

- لا تنس افادتى بتقرير كامل عن هذا المشاغب ..

يهمس فى أذن (عباس أفندى) قبل مغادرته المكان ..

- حاضر يا سعادة (البيه) ..

أسمه (فتحى حسنين) .. فلاح من عرب الضـــواحى .. اصطحبته أمه فى الأيام الخضراء الى فيلا (علام بك) .. طالب .. منتسب الى كلية الحقوق .. يحمل كتبه الدراسية الى (البدروم) أحيانا .. يحلم بالأمتحانات وسط القذف والدمار .. هو الذى يحرر جميع مكاتباتنا أليك .. يحفظ القرآن .. القـــانون .. والميثاق أيضا .. من أجله خرجت أمه بعد موت الأب .. تنبش فى الأرض بحثا عن أسباب الحياة ..

(قدماك تحملانك .. أكلتنى الأيام .. دورك الآن يا ولد) ..

يخرج .. يغسل .. يمسح .. يزرع .. يدرس .. أبدا لم يركع .. (أريد عملا بمرفقكم .. أتخذه درعـــا يقينى برودة الأيام البعيدة) ..

تخرج أمه فى ركب آل (علام) .. تطوف العاصمة معهم .. يحتوونها بينهم .. يحبونها كثيرا .. طيبة هذه المرأة .. تتركه لنا .. يلسعنا كل يوم لسانه البذىء .. تدمينا كلماته الحجرية .. يحبنا .. نحبه .. ابننا .. يصرخ من أجلنا فى كل حين .. لا تغضب منه يا سيدى ..

- لمحت بناته فى صحبة شباب القرية ..

- كان لازم تنبهه

ـ ربنا يستر على أعراضنا ٠٠

ـ يا عالم كفاية ٠٠ عيب ٠٠ ده كلنا فى الهم واحـــد ٠٠

لقد ناموا جميعا بعد أن أفرغوا عفونة الجوف يقتلون بهـــا مساحة الملل داخل قبوهم ٠٠ الثوانى تقتلهم ٠٠ كانت الأحاديث خطيرة ٠٠ مرعبة تلك المرة ٠٠ أفزعته كثيرا ٠٠ طار النوم مـــن عينيه ٠٠

ـ الى أين تحزمون الامتعة ؟

ـ لا ندرى ٠

ـ خذونا معكم ٠٠ نشاركم فى رحلة المجهول ٠٠ المدارس على الابواب ٠٠ هل أضيع عليهم كل المستقبل ٠

ـ لماذا ترهق نفسك بالتفكير فى أمور بعيدة ؟

ـ يخنقنى السواد الجاثم على أنفاس المدينـــة ٠٠ قلبى مقبوض !!

ـ تبدو متشائما ٠٠ بالرغم من تأكيدهم بأننا لن نغيب طويلا هناك ٠٠

ـ أين تقع (هناك) تلك ؟ يبدو أنك رتبت أمورك جيدا ٠

ـ أقسم لك ٠٠ أننى لم أفكر سوى فى أشياء الترحـــال البسيطة ٠

ـ حتى الآن لم تفكر أين ستذهب ؟

ـ حتى الان ٠٠ لم أفكر ٠٠ أين ؟ متى ؟ كيف ؟

– أذن ٠ الى الزقازيق مرة أخرى ٠٠ حيث هاجرت صغيرا فى صحبة أبى أثناء الحرب العالمية الثانية فى الاربعينات القذائف المكثفة ٠٠ صرعت أفكار الرأس من مهدها ٠٠

ولأن أرواحهم ومستقبلهم أمانة فى عنقى ٠٠ سأهرب الى هناك ٠٠ لا مفر ٠٠

فرحت كثيرا حينما عثرت على مسكن جديد تحت التشطيب فى نفس الحى الذى ضمنى يوما فى أحضان أبى وأمى – (رحمهما الله) – أيام حرب الالمان ٠٠

وحدى أسامر الخواء حولى ، أطارد الأشباح ، الخفافيش التى غزت منزلنا العتيق ، ترقص ، تغنى فى غياب الاهل ٠٠ الفئران تداهم شارعنا الصريع ، تنهش آثاره الصغيرة ، لا تعبأ كثيرا للمواء العواء ، النباح ، فالكل مرتزقة ٠ أحبس صرختى فى أعمـــاقى ، تهزنى ، أرتجف ٠ أفتقد الزوجة ، الأولاد ، الجيران ، الأهـــل والبلد ٠

كيف يدبرون أمورهم على الجانب الآخر لو بلعتنى الحرب ؟ أرتجف مرة أخرى لهذا الخاطر ، يجب أن أعيش ، أجمع اشيائى الصغيرة ، اهرب ابحث فى جفاف المدينة عن رفيق اسكن اليه ، يشاطرنى مأساتى ٠

استقر بى المطاف أمام بوابة حراسة (بدروم) أحد مبانى المرفق الكبير ٠٠

ـ قف ٠٠ كلمة السر ؟

ـ لا أعرف ٠٠

ـ ارفع يديك ٠٠ اركع ٠٠

يتقدم منى هذا المجنون بعد أن أفزعتنى صرخته ، فجثوت ارضا أمتثل لأوامره ٠٠ عدت ألهث تحت الفزع خوفا من فوهـــة البندقية التى يوجهها نحوى وهو يتحسس مصدر أنفاسى فى جوف الليل الذى يصبغنا بالسواد ٠٠

ـ من أنت ؟ انطق ٠٠

ـ عـ ٠٠ عبا٠٠٠٠س ٠٠

ـ عباس (أفندى) ٠٠ آسف ٠

ـ كدت تقتلنى يابن (الكلب) ٠٠

حمدت الله فى نفسى أن الظلام يشرب ما يبللنا ٠٠

لعله من المناسب أن يجمعكم مكان واحد تقتلون فيه وحدتكم بعد أن أخرجتم الأهل ، تأسون ، تأكلون ، تشربون ، تنامون معا لا مانع عندى ٠ الاختيار لكم ٠ أى منشأ من المرفق الكبير ، هكذا نصحنا (نوفل بك) ٠٠ بعد أن ضحك كثيرا لواقعة الأمس عندما أخبره الزملاء كيف جعلنى عم جابر (حارس المبنى) أتبول عـــلى نفسى ٠٠

بناء الى توجيهاتكم الرشـــيدة ٠٠ نتشرف بعـــرض الآتى (والفضل لله ٠٠ ولسيادتكم) :

١ ـ تم تشـــكيل لجنة اختيار مأوى للعـــاملين بالمنطقة برئاستنا ٠

وعضوية السادة :

(أ) فتحي حسنين (أعرف أنك تكرهه ٠٠ لكنه مثقف ٠٠ جرىء ٠٠ طيب ٠٠ يا سيدى) ٠

(ب) أمين مسعود (يروجون بأدمانه للخمـــر ٠٠ أعقلنا أحيانا) ٠

(ج) محمود أبو الغيط (ثرثار لا تعرفه ٠٠ وقاك الله شـــر لسانه) ٠

٢ ـ قامت اللجنة بالوقوف على الطبيعة ومعاينة بعض الأماكن التى تصلح كملاجىء لاقامة العاملين وايوائهم بصفة دائمة خـــلال العمليات الحربية ومنها ٠٠ و ٠٠ و ٠٠

٣ ـ قررت اللجنة أن أنسب الأماكن للمعيشة هو (البدروم) الواقع أسفل المبنى الادارى القديم بالحى الافرنجى ٠٠ مبنى الشهيد (شوقى خلاف) ٠

نأمل من سيادتكم التكرم بالموافقة على اختيارنا ٠٠

وفقكم الله الى ما يحبه ويرضاه ٠٠ والعزة والنصر لمصر ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

أعضاء اللجنـة	رئيس اللجنـة
أمـين أبو الغيط فتحى	عباس محمد الطيب (كاتب أول)

يتحرك الرجال فى خفة بالغة تحت الضوء المخنـوق يسكبون الماء فى كل اتجاه ، يغسلون ، يمسحون ، ينظفون الارض والجدران يفرشون أمتعتهم الخفيفة .

ثم يركنون للراحة ..

ـ ضللتنى يا فتحى !

ـ انك مثلك

ـ تعنى أنك لم تقم بمعاينة هذا المكان من قبل ..

ـ كنت أود مصارحتك .. لكنك تسرعت بتقريرك الى (نوفل بـك) ..

ـ ولماذا لم ينبهن (أمين مسعود) ؟

ـ لقد وقع على اللجنة بناء على طلبك .. أنسيت أنه كان يمسك القلم مقلوبا ..

ـ لكنهم أوعزوا ألينا بهذا الاختيار .

ـ نعم من أجل نساء الدور المسحور .. والبدروم المقابل..

ـ اذن .. فعلها (أبو الغيط) .. أليس كذلك ؟

ـ ......

أستقرت مجموعة (عباس الطيب) فى البـــدروم المقـابل لمستشفى الطوارىء .. لا يدخله الضوء أبدا ، يعتمـــد دائما على اللمبات الكهربائية ..

تضم المجموعة بعض رؤساء العمل والساحات المختلفـــة فى المرفق الكبير ، بينما تقع مجموعات أخرى من العاملين فى أماكن متفرقة آمنة .. الفيلات الخالية .. العمارات السكنية الخاوية..

الورش ·· المخازن ·· المبانى الادارية الجارى نقل محتوياتها الى مقر التهجير بالعاصمة بعيدا عن نيران العدو (كل رجال المرفق أعضاء فى المقاومة الشعبية ·· يتم تزويدها ببعض الأسلحة الخفيفة ·· لحراسة مواقعهم) ··

كثيرا ما يتردد بعض كبار الشخصيات من العاصـــمة الى الاستراحات الكبيرة ، حيث جهزت لهم المكاتب الميدانية ، بعيدا العيون المتطفلة ، للدراسة ومتابعة الخطط البديلة مع رجال القوات المسلحة وتجهيز خطة تطهير المجرى الملاحى ، وأمور أخـــرى كثيرة سرية جدا ··

يقيم معظم السادة مهندسى المرفق فى اســـتراحة الأطباء ، الجميع يخرجون الى أعمالهم المعتادة صباح كل يوم ، بالرغم مـــن نيران العدو ، الحاقا الى تقرير اللجنة السابق المرفوع لســـيادتكم بخصوص اختيار (بدروم) المبنى الادارى القـــديم لايواء بعض العاملين ··

نأمل التكرم بالاحاطة بأن مستشفى الطـوارىء ·· (أعنى جهاز التمريض ·· وبعض الممرضات) يشغلون الدور المســحور أعلى البدروم ·· وكذا البدروم المقابل ·

وشكرا ·

المبلغ : عباس الطيب
المستلم : فيفى ··

ـ النار والبنزين ·· مجنون أنت ·

ـ معذرة يا سيدى ·· قد أنس الرجال الى هذا المكان ·· يرشفون فيه رائحة الحياة ·

ـ لولا معرفتي بك وثقتي فيك لتغير الأمر ·
ـ مخطيء أنا ··
ـ خذ رجالك الى مكان آخر ··
ـ ···· لا مكان أنسب منه ·
ـ اذن أنت المسئول عن أي عواقب وخيمة ·
ـ ···· لله الأمر ··

كيف يتسنى لنا أن ننام ، فقط تهزمنا اللحظة التي نعيشها تطرحنا أرضا ، يتقلب بعضنا فوق الألواح الخشبية التي افترشها تحته ، (بقايا مخلفات الدمار بالمدينة) ، والبعض فوق قطع الكرتون أو المشمع الرديء ·· لكن رطوبة القاع تتغلغل داخل بقايا فقرات الظهر المتآكلة ، نتقلب ذات اليمين ، ذات الشمال ·· أيقاظا ·· رقودا ··

نشم ولوج الفجر في رائحة صياح (الديك) القادم من خنف أطلال المدينة ، أيضا يعيش خلسة مثل بعض المدنيين الذين يدخلون المدينة بعيدا عن عيون الحاكم العسكرى ، لا يعرفون مكانا آخر يحبونه مثل أرض الميلاد ··

يومنا ليل داخل القبو ، في غياب صياح الديك نهتدى الى مطلع النهار من أخبار الصباح عبر موجات الأثير التي نلتقطها بجهاز (الراديو) الوحيد معنا ، عندها نتأكد من جديد أننا مازلنا أحياء ، ذات يوم تعطل (الراديو) في نفس اللحظة التي ألم بأحدنا مرض مفاجيء ، نقلنا (الراديو) على الفور لورشة اصلاح في قبو آخر ، ونقلنا المريض الى المستشفى في البدروم المقابل ··

يفرح (أبو الغيط) كثيرا لمرضـــانا ، يجلس الى جوارهم دائما في المستشفى ٠

صباح كل يوم يرفع عم (جابر) (جردل البول) الى الخارج (ينام معنا في ركن بعيد من أركان القبو ٠٠ نهرع اليه عند الحاجة حتى لا نتخبط في ليل الخارج الكابوسي) ٠

بعد أن نعانق الصباح في صلاة الفجر فوق سطح الأرض بالدور العلوى من المبنى ، نجلس الى الفطور ، غالبا لا يتغير ، قليل من الشاى الاسود المتفحم داخل معلبات الصفيح الفـــارغة حبات المدمس الحجرية ، كسرات الخبز المجفف تحت شمس الصـــعيد الحارقة ، (بتاو) ، (عيش شمسى) ، وله أسماء أخرى ، ثم رءوس البصل تعطر زفيرنا كل يوم ٠٠

عم (جابر) ٠٠ وحده ينام في الدور العلوى ، خلف باب المبنى ، يحرس الاشياء المهترئة ويحرسنا ، لا يتحرك من مكانه سوى لقضاء الحاجة ، نركن اليه أشياءنا البســـيطة ووصـــايانا الأخيرة قبل أن نخرج للعمل ، البطاقات الشخصية ، النقود ٠ رسائل خاصة في حالات الغيوم ٠٠

نقرأ الفاتحة على أرواحنا قبل أن نركب يوميا ٠٠ ينقبض قلبى كثيرا لهذا الهاجس الذى يداهمنى ، أننا لن نعود ، فالموت يداعبنا كل لحظة ٠٠ متى ننتهى ؟

- استيقظوا ٠٠ الموت المجنون قادم ٠
- أخرجوا قبل أن تدفنوا بين نفاياتكم وقاذوراتكم ٠٠
- اهدأوا ٠٠ لا تخرجوا ٠٠ هنا لا توجد شظايا ٠٠ فقـــط اطفئوا الأنوار ٠

الأشباح تتخبط داخل القبو المعتم ، يتنفسون بحذر بعد أن أيقظتهم الزلزلة الكبرى فى جدران القبو تحت تأثير الانفجار المكتوم ، اتجه بعضهم ناحية الباب يفتحه ، تسرب ضوء باهت الى الداخل ، تتجه ألوان الموت المفزعة ·· أحمر ·· أسود ·· أزرق ·· أصفر ·· ثم خلفها عم (جابر) الذى كان يرقد للحراسة فى الخارج ··

ـ ماذا هناك يا رجل ؟

ـ مدفعيتنا ·· تطاردهم بجنون ·· يقول بعض العسكريين فى المنطقة ان العدو قام بمحاولة ابرار مائى تظللها سحابة من طائراته ··

ـ ألم أقل لكم ·· ان السماء سوداء ·· وغياب القمر يغرى بعمليات التسلل ·

ـ على أفراد المقاومة الخروج بسلاحهم الى مناطقهم لتدعيم زملائهم الذين يقومون بالحراسة الآن ·· الباقى ينتظر أدوارا أخرى ··

- ٣ -

(فتحى حسنين) ··

استشهد أخى فى حرب اليمن ·· صرخ أبى ·· لقد كان ساعدى الأيمن ·· (خمسة فدادين لك ولأولادك بعدك) منذ ذلك الحين عانقت قلوبنا تلك الرقعة من الأرض ·· بيت صغير من الطوب (النى) يضمنا ·· تظلله تلك (التوتة) التى حفرت على

جذعها الأكبر رسم قلب يرشقه سهم ، اسمى فى الطرف الأسفل منه وفى الطرف الأعلى اسم أخى . فى الذكرى السنوية لاستشهاده تخرج أمى برواز الصورة الوحيدة التى نملكها له ، تعلقه الى جذع الشجرة فوق القلب المحفور .

يجلس تحته مقرىء الليلة ، نلتف كلنا حوله ، « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » ... فى كل مـرة تصر أمى على أن يرتل المقـرىء الشيخ تلك الآية ..

ــ احنا عايشين فى خيره ..

تنظر الى الصورة المعلقة ثم تمسح عيناها الدامعتان الأرض من حولها ، يربت أبى على كتفها .

ــ عليه العوض ومنـه العـوض .. قومى ياولية جهزى (لقمة) للجماعة ..

كنت أفرح عندما يصل أبى الى هذا المقطع من المسرحية المعادة دائما ، بعد العشاء تتم الثرثرة والكركرة ، النساء يجلسن فى جانب بعيد يفحمن قوالح الذرة ، يجهزن الشيش ، والرجال تحت توتة خليل .. (قد كان أخى يحب التوت .. زرعت أمى تلك الشجرة بعد أن تسلمنا الأرض .. سمتها باسمه .. فجذورها تتغذى من لحمه .. تقول أمى) ..

يحتسون الشاى ، يتحدثون عن بطولات أخى الخـــارقة ، سأل أحدهم أبى يوما عن مصدر هذه المعلومات .

ــ جاءنى ولدى فى المنام يقص على ما أرويه اليكم ..

ــ لا اله الا الله .. ولى .. والله ولى .. طول عمره كان صالحا (يخبطون الأكف .. يرددون كالعادة) ..

بعد دور الشـــاى الرابع ، يتكلمون فى كل أمور الدنيا والسياسة ... قلت الوحـــدة لن تنفع معهم .. هم ناس تجار واحنا فلاحين ، لازم حد فينا يتغير .. أما ان يصبحوا فلاحين أو نصبح نحن تجارا ..

ـ أفادك الله يامولانا ..

كلنا نحب أحاديث الشيخ (مصطفى) ، لكننا جميعا نخشى مجلسه ، قضى معظم حياته وراء قضبان السجن ، (لسانه كارثة) قال لنا أبى وهو يودعه ذات يوم ، على أنى تمنيت من الله دائما أن يمنحنى لسانا قويا مثله أشق به طريقى .

ـ الواد (فتحى) طالع لك يامولانا .

ـ ده طالع بطل زى المرحوم أخوه . (يطربنى رأى الشيخ فى شخصى) بعد دور الشـاى السـادس يخرج كل الشـباب والأطفال من المجلس ، الحديث الآن خاص بالكبار فقط ، والنساء عن بعد يوارين ضحكاتهن ، يعرفن ما وراء هذا الحديث ، فيسبقن الرجال الى فراشهن ..

مات أبى ، خذلنا مرضه بعد أن نهش أربعة أفدنة من لحم أخى ، موت وخراب ديار ، ده خبطتين فى الرأس توجع ياناس، يندبون دائما ، خد بالك من أمك .. هى فى عينى ..

تخرج الى آل (علام) .. يحبونها منذ أن كان يصحبها أبى معه لحراسة البيت الكبير ، وحدى أجلس الى كتبى بعد أن أروى جسد أخى ، حتى ينام راضيا مطمئنا ..

تحلم أمى أن أكون مزيجا من عصير الرجال .. أخى .. أبى .. الشيخ مصطفى .

أجلس الى التوتة عصر كل يوم ، أحتسى الشاى وحدى ، أسامر الخواء من حولى ·· أين هم الآن ؟ كيف يعيشون على الجانب الآخر ؟ ، هربوا جميعا ، تركوا العزبة (أرملة) تصارع الرياح والانواء فى صحراء أيامنا القاحلة ·· تصطدم عيناى بقلبى المحفور ·· أبدا لن أخذلك · سأرويك دائما ··

(زينب) ···

حفرت اسمك الى جوار اسمى ·· حتى يعرف خليل أخى كم أحبك ·

ذبحتنا النكسة ، ذبحك أبوك ، ذبحنى خطابك ، تمنيت لو تمزق فى أشلائنا اليومية ·· لم يصلنى ··

(تزوجت ليبيا · يقينا شر العوز والحاجة ·· هل تريد عقدا يا فتحى ؟) بكيت كثيرا تلك الليلة تحت شجرة خليل بعد أن خلعت اسمك من قلبينا ··

(أمى) ··

· يسألنى خليل عنك · أين أنت ؟ ·· عندما عدت ذات يوم من العمل ركنت الى شجرته ، لم أجد اسمه فى مكانه ، بكيت كثيرا ، بحثت عنه ، توسلت اليه أن يعود ، وعدته أن أبحث عنك ·· أدبر لك مسكنا ، لا أتركك وحدك ، يخطفك المرض منا كما اختطف الأب من قبل ·· وعدته بأشياء كثيرة يا أمى ··

فى صباح اليوم التالى وجدت اسمه محفورا كما كان ··

ـ أحبك يازينب ..

كل العزبة تعرف انك لى ، لم يجرؤ أحد أن يتقدم اليك أضمك الى صدرى كثيرا ، وحدنا فى غياب الأم والأم بالبيت الكبير أبعثر أشياءك الصغيرة فى أرجاء غرفتى ، أنفاسك تملأ رئتى ، أقبلك تحت القذف يرج أركان الحجرة ، يزلزلنا .

ـ تخافين يا زينب ؟

ـ تمنيت لو أموت فى أحضانك .

كاذبة .. خيانتك تطاردنى فى وحشتى .. لا أنام ..

كرهت بيتنا الصغير فى غياب الأهل ، معذرة يا خليل ، تعرف أن الوحدة تخنقنى ، سوف أعود اليك كل بضعة أيام ، أروى أرضك ، وأطمئن الى متاعنا البسيط ، أنت فى حماية عم (حامد) الآن ، رفض أن يترك العزبة مع ذويه ، تركوا له البهائم ، المواشى ، الأغنام ، الطيور يرعاها ويجمع البيض حتى يعود أحدهم لأخذ التموين لهم فى أرض المهجر .

ـ شرفت (البدروم) يا أستاذ فتحى .

هائما يضرب فى الأرض بحثا عن مأوى يضم أمه اليه فى جوف المدينة المترامية الأبعاد ، الجدران المهزومة تصطف منكوسة الأطراف ، يتوجها وشاح الحداد ، تتلقى العزاء فى وقع خطواته الجنائزية ، تسوقه قدماه ، يركب ذهوله ، يخترق النتوءات ، الدروب تمنى لو يستطيع أن يغافل الزمن يشطر أحشاءه ، يمد يده يستخرج اللؤلؤ ، الياقوت ، المرجان ، وأيامهم البسيطة .

رعشة باردة تسرى فى جسده من أسفل الى أعلى ، ينظر الى موضـــع الأقدام ، تغوص فى ميـــاه راكدة ، يقفز خوفا الى الرصيف المجاور ، ينفض عن أطرافه بقايا الطحالب الجائعة ٠

يبدو الشارع خاليا الا منه ، نسمات الهواء المخنوقة تحمل عبق الدماء والوحشة ، يرجفه ، يفزعه صرير النوافذ ، الأبواب المحطمة ، يكتم أنفاسه ، ترصد أذناه مصدر خرير المياه الى البركة أمامه ٠ (البالوعة) الصغيرة فى منتصف الطريق لا تحتوى السيل كله ، يتابع حركة الدوامات المتلاحقة ، يقتفى أثرها فى الاتجاه المضاد ، يتجه ناحية الباب الكبير ، تتدفق من تحت حطامه تحفر فى درجات السلم الجريح أخدودا تنمو على جوانبه بكتريا، طحالب ٠

تهبط ، يصعد ، يقفز متفاديا لزوجة الأشـــياء الخضراء ، تصطدم عيناه بلافتات العزاء المهجورة ، شقة ٤ ، عبد العليم ٠٠ مفتش بالتعليم ، شقة ٦ ٠٠ حج مبرور ٠٠ من استطاع اليه سبيلا، موظف بالجوازات ، تاجر أسماك ، ديوان عام المحافظة ، شقة ١٤ ٠٠ أخيرا ٠٠٠ يدفع الباب أمامه ، يتخطى المساحة الخضراء العطنة تحت الأعتاب ، يندفع داخل الطرقة ، يتابع تسرب المياه ، تطفح من جوانب البانيو ، يغمر يده ، ينتزع السلسلة المعدنية ، يجذب قطعة الكاوتشوك ، تسد فوهة الصرف فى قاع الحوض ، دوامة كبيرة تبلع مياه الأطراف الطافية ، ثـم بهـــدوء يغلق المحبس ، احساس بالراحة يغمره ، حمام نظيف لم تنل منه أتربة الأيام وعفونة البارود ، بلاطات القيشانى الزاهية تجلد الجدران ، تطلع الى وجهه فى المرآة أمامه ، غريب ، كئيب ، كاد يصرخ من هول ما أصبغته أيام (القبو) على شكله ، عيناه نصف المفتوحة لا تقوى على استقبال كل أشعة النهار ، فتحتا أنفه المتسعتان تنبهانه فوق

الرف ماء (كولونيا) ، معجون حلاقة ، معجون أسنان ، صابون ، تفرس الأشياء ، بعضها لم يستعمل بعد ·· تناول فرشة الذقن ··

ما رأيك فى دش بارد ينعش الجســـم ، يرطبه بعد تلك الواقعة ؟ يخلع قميصه ، يعصر أطرافه المبتلة فى موقفة البانيو ، يزيل آثار المياه الراكدة من أطراف بنطلونه ، يتجرد من ملابسه ، يحملها باحثا عن مكان يركنها اليه ، خلف الباب (رشاقة) يتدلى منها (سوتيان) ، يهتز لملمسه ، يقربه من أنفه ، مازال يحمل رائحة أنثاه ، يتجه ناحية البانيو ··

فى طريقه للخارج بعد رحلة الانعــاش القصــيرة ، تتجمد أطرافه ، فى منتصف الطرقة ثلاث غرف مبتورة الجدران ، لم يتنبه لها وهو يتابع تسرب المياه ، قطع أثاث متفحمة تفرش باقى الأركان المصلوبة ، اطار زجاجى مهشم ينام داخله عروسة وعريس ، رماد البارود يطمس معالم الصورة ·

(نعم ·· الآن تسعفنى ذاكرتى المريضة ، لا شك أنها شقة ذلك الرجل الذى خرج تحت الذعر عاريا يوم عرسه ، اخترقت احى القذائف جدرانها العالية ، انه هو لا ريب ، أذكر قصـــته فقد وردت فى أحاديث أبو الغيط) ·

الشارع الراكض تحت الردم ، تدثره النفايات ، بقايا الأشياء تفرشه الجدران المنهارة ، تغلفها الأسياخ الحديدية المتشابكة ، تسد قطاع الطريق ·

يرفع أقدامه بحذر وهو يحسب لكل موضع جديد لها فوق هذا الحطام حتى لا ينزلق ، ومحاولة محسوبة لتخطى العقبة ، اجتيازها للجانب الآخر ·

(معذرة يا (تامر) ·· لم يخطر لى أننى سأهرس يوما هذا السقف الذى ضمنا تحته ، نفترق من كتاب واحد فى الأيام الخضراء ، تحب الكيمياء كثيرا ، تصحبك معها الى كليـــة الطب ، تركلنى الى أبواب كلية الحقوق منتسبا ، تطوف العاصمة قبل المحنة طبيبا ناجحا ، أعيشـــها كما كنت مراقبا فى الشئون العامة ·

- ٤ -

(أبو الغيط) ···

جلست مجموعة القبو حول (أبو الغيط) كالعادة ·· سمى (البدروم) بهذا الاسم بعد أن صرخ (فتحى حسنين) ذات يوم وهو ينطلق منه الى الخارج يبحث عن نسمة هواء نقية ترد أنفاسه ·· (يخنقنى هذ القبو) ·

(الأرنب) يدور بينهم بأكواب الشاى الصغيرة (سمى بهذا الاسم لخوفه وفزعه الشديد عند سماع القذف ، الطلقات النارية أو حتى الطرق على أبواب القبو) ·

يفرحون كثيرا لغياب (فتحى حسنين) عن مجلسهم ، يركن الى بيته فى العزبة أحيـــانا ، هذا يعنى أنهم لن يتحدثون عن المقاومة ، القانون ، الميثاق ، بعض الأمور الدينية التى طالما يشرحها لهم فى وجوده بينهم ·

- كيف تعرفت على ممرضات المستشفى جميعا ؟

يعتدل فى جلسته استعدادا لموضـــوع السهرة فى تلك

الليلة ، يمكن أن يحدثكم عن تاريخ انشاء المستشفى ان شئتم ، وتاريخ حفر قناة السويس كذلك ، فالأذن رادار مفتوح ، الذاكرة الخاوية تستوعب الأشياء الصدئة ، وعضلات اللسان مدربة على الحركة ٠

كنت ضمن المجموعة المكلفة بنقل أجهزة ، أثاث ، مهمات المستشفى معنا الأطباء وجهاز التمريض ، تعارفنا يومها ٠

أجلس اليهم كلمـــا كان لدى فراغ ، أعاونهم فى أعمال التمريض اذا لزم الأمر ، آتى اليكم من عندهم بتلك الحكايات التى تملأ فراغ لياليكم ، تعرفون لا أستسيغ سرد موضوع ما أكثر من مرة ٠

فى البدء ما أن خرج رجال مراقبة وقف اطلاق النار التابعـين للأمم المتحدة لرصد تحركات أى من الأطراف المتحاربة على جانبى القناة حتى انهمر وابل من نيران العدو فى اتجاهاتهم ، هرعوا من فورهم الى سيارتهم ، ثم لحظات ، بعدها ، الأسلحة الثقيلة والبعيدة المدى ، ترسل داناتها عابرة القناة ، تصـــيب المستشفى والمرضى معا ، الدوى الهائل هنا وهناك فى أنحاء متفرقة يزلزل أركان احدى السفن المحجوزة فى المجرى الملاحى ، الشظايا القاتلة تصدع جوانب المستشفى ، تغتال الأشجار جميعا ، تدمر أجزاء من مبانى الكنيسة ، البقع الحمراء تتنـاثر فوق أسـفلت المكان ، مرضى المستشفى ومرضى الحرب يتخبطون فى صرخاتهم ، يجرون فى اتجاهات عشوائية ، يصطدمون بالأشجار ، ينبطحون أرضا ، يتدثرون بحشائش الأرض ، فروع الأشجار المغتالة حولهم ، وبعض الزهور ، يرقبون القذف القادم من الشاطىء الشرقى للقناة أمام المستشفى مباشرة ٠

ـ الى هنا وصل اليهود ؟

... لكن العذراء ما زالت ترفع وليدها ... يتصـــدى لهم .

حتى لا تتكرر الكارثة بعد أن أصبح المكان مستهدفا ، تنقل محتويات مستشفى المنطقة رقم (ستة) الهامة الى (بدروم) احدى مبانى المرفق الضخمة داخل المدينة ، بعيدا عن عيون العدو، وهناك يتم تجميع السادة الأطباء ، جهاز التمريض ، ولا تنسوا مرضاكم .

تم تكليف باقى العاملين بالمســتشفى (الذين لم يتم نقلهم للبدروم وسط البلد) بأعمال حراسة باقى المهمات ، الأدوات . المنشآت المصابة ..

كان الريس (قاسم) يستطلع تحركات العدو على الشط الشرقى من خلال فتحة فى جدار بدروم عنبر البخار المثقوب بفعل القذف . من الصعب أن يراه أحد أو يرى (المسدس) الذى يحمله لأول مرة فى حياته .

ـ حرك سقاطة الأمان .. ثم اضغط الزناد بقوة .

ـ ما أن رأيت البدروم المقابل خاليا .. حتى أسرعت الى (عباس أفندى) يضمنى الى لجنة البحث عن مأوى .. أقنعهم بمزايا الاختيار الكثيرة .

ـ أصبت باختيارك .. لك الجنة يا (أبو الغيط) .

تأكد لجهاز المخابرات بالمنطقة أن الريس (قاسم) هو الذى يبدأ السب صباح كل يوم لجنود العدو القابعين على الشط الشرقى للقناة ، فيندفع أحد الجنود الذين يجيدون العربية للرد عليه ، وإثارته فى كل مرة ، ولأن المخطط مرسوم بعناية للوقوف على أثر الهزيمة فى وجدان عامة الشعب ، ثم ترحيل الريس (قاسم) الى النوبة ٠٠ يركن الى أولاده هناك ٠

ـ لا ترهقنا بحديث أبو القاسم ومركوبه ٠٠ خيرا ما فعل رجال المخابرات ٠٠ نريد الأحاديث الأخرى يا رجل ٠٠

دور شاى تانى يا (أرنب) ٠

وبينما هم يتاهبون لسماع بعض الأحاديث الناعمة التى تزعزع وحشتهم وحواسهم الميتة ٠٠٠ اذ بطرقات غريبة متتالية على باب (القبو) الخارجى يصحبها بعض الهمهمات ٠ يهب (الأرنب) مسرعا لفتح الباب الأمامى أمام الطارق حتى لا يفوته الكثير من أحاديث الليلة ٠٠٠

تسمر أمام شرطى يحمل فى يده ورقة صغيرة ، المطلوب استدعاء (سعيد عبد المعبود) الى قسم البوليس ٠٠ أهو بينكم ؟ الواقعة تنبىء بعواقب وخيمة أو كارثة ، ويهب بعض الرجال فى أثر زميلهم ، يلتفون حول بلاغ الشرطى ٠

ـ طيب هو ٠٠٠ لماذا استدعاؤه ؟

ـ بسيطة لا تنزعجوا ٠٠ وصلتنا اشارة من ميت غمر للتحرى والتأكد من محتويات بيته ٠٠٠ هل سرقت يا رجل ؟

ـ لا أعرف ٠

أخذ بعض الرجال يبحثون عن (فتحى حسنين) ، رجلهم الذى يستطيع محاورة رجال الشرطة ، والمخابرات ، والمقاومة ،

والاتحاد الاشتراكى والصحافة اذا لزم الأمر ·· يفتقدونه الآن ، ينام فى العزبة اليوم ·

– تقول الاشارة ان زوجتك تعرفت على منقولاتكم وهى تبـاع فى سوق المهاجرين هناك ·

– (ميت غمر) أيضا بها سوق للمهاجرين ؟ (يتساءل أحدهم) ·

– فى كل مكان فيه مهاجرون تجد لهم سوقا (يرد أحدهم فى مرارة) ·

– يا خبر أسود ·· يومين فقط لم أطل على البيت ·· يتسرق !!

(يلطم الرجل نفسه) ·

– فى سوق المهاجرين بالزقازيق ·· تباع المنقولات بأرخص الأســعار ·· قروش قليلة تسد بعض الفراغ فى البطون ·· الفلاحون يشترون كل شىء ، الثلاجات ، البوتجازات ، الصالونات الكبيرة المذهبة ، وهم فى طريقهم للحقول ·· ينقلونها فوق مواشيهم ··

– تصوروا أن زوجتى المهاجرة (بنت المحنة) أيضا ·· تتلذذ بشراء عفش النكسة ·· حاولت كثيرا صــدها ·· دون جدوى ·

– هل أصبحنا أنصاف رجال فى نسائنا ؟ (مـــا دايم الا وجهه ·· أسترها يارب) ·

– عنــدما غادرنا البيت ·· أخــذنا كل المتاع حتى نبيع ما يزيد عن رحلتنا المفتوحة ·· قبل أن تصل اليه يد أخرى

تسرقه ، أو تبدده ، فقد تركنا مصحفا صغيرا فوق عتب احدى الأبواب حتى يحفظ الله البيت فى غيابنا ٠

(استسلم الرجال للصمت ٠٠ فكل منهم يحس فى نفسه بضيق وتوتر) ٠

- أين أنت يا (أبو الغيط) لتسمع ماذا نقول فى غيابك ٠

تسلل الرجال الى خارج القبو ، يشقون الظلام ، عملا بنصيحة أحدهم ، يمضـــون بعض الوقت فى شارع مصر ، يشترون بعض لوازمهم ، ويجمعون قطع الصابون المتوافرة بالمحلات من الزمن الأخضر ، هدية لذويهم عنـد العـــودة فى الأجازة الميدانية ، لا يصدقون حديث المسئول الكبير بالتليفزيون ٠٠ أن أزمة الصابون مفتعلة وكذلك الشاى ٠ والدقيق ٠

يذهبـــون الى مقهى القنال ، أو مقهى الزبير أحيانا من أجل التليفزيون بعد أن أصبحت دور السينما بالمدينة مرتعا خصبا للفئران ومأوى الكلاب الضالة ٠

لا بد من زيارة (عبد الراضى) ، ســـندوتشات الفـول والطعمية أولا وبعد ذلك تبدأ رحلة الهضم والتجوال بين (فاترينات) الظلام ٠ وعندما تجزع النفس من الفول ٠ فالطريق الى مكرونة (سوق الحميدية) أو سندوتش بسطرمة ٠٠ أو (بلوبيف) من عبده البقال ، بعدها ، يلتفون حول السمسمية أمام محل (هاشم)٠ (الضمة) ٠٠ تضم كل الرجال المدنيين فى البلد ، فرصة للتعرف على أخبار الجيران ، الأهل ، الأصدقاء فى تشتتهم البعيد ٠ يتوجعون فى الأنغام الحزينة التى ترثى المدينة ٠٠ ثم يتمسحون فى أغنيات الأمل الباقى للأرض والوطن ٠

على مقربة منهم أمام المحل يقف (هاشم) يصنع تمثالا من شظايا العدو التى فتكت بالأهل ، يتقدم منه بعض الحاضرين ، يقدمون له ما استطاعوا جمعه من شظايا أو مخلفات دانات العدو ليكتمل التمثال حتى أن أحدهم قد وعده بأنه سوف يأتيه بجناح طائرة ، لكنهم يبتسمون له وهو يترنح ٠

ـ عندما يكتمل نسميه تمثال الأمل ٠٠

ـ لا ٠٠ بل (المقاومة) ٠

ـ بل ٠٠٠ (الصمود) ٠

ـ أصبت يا هذا ٠٠ ليكن تمثال (الصامدين) ٠

ـ ولتكن أيضا صحبتنا هذه ٠٠ صحبة (الصامدين) ٠

ـ تعرفون الواد (عبد الصمد) ٠٠ الميكانيكى بمجلس المدينة ٠

ـ طلق زوجته فى (بلبيس) من أجل أن تحصل على بدل تهجير كامل كمطلقة بالاضافة الى بدل التهجير الخاص به ٠٠ هكذا أخبرتنا ذات يوم ٠

ـ هى التى أقنعته بذلك ، سمعت هذا فى مجلس (الضمة)

ـ تلك لعبة ذوى النفوس الضعيفة ، يستغلون الموقف فى نوم الضمير والوطن ٠٠ ما الجديد فى ذلك اذن ؟

ـ لم تكن المرأة تحسب لقروش بدل التهجير القليلة ٠٠ بل كانت ترسم للخلاص منه ٠٠ تركت له أولاده ٠٠ تزوجت بآخر ٠

ـ يستحق اللعنة ··

ـ أعرف زميلا لنا ·· طلق زوجته صوريا ، على الأوراق فقط طمعا فى اعانة التهجير لكل منهما ·· وصله تلغراف بأنها فى حالة وضع ·

ـ يستحقون ·· السجن ·· الشنق ·

(أمجاد يا عرب أمجاد

فى بلادنا كرام أسياد

أمجاد يا عرب أمجاد) ·

اطفى (الراديو) اللى عندك ·· خلينا ننام ·

- ٥ -

دأبت أرجلنا على حملنــا فى الأونة الأخيرة (بعد أن تصدعت خلايا المخ تحت زلزال دانات الألف رطل) تسوقنا الى حيث يوجهها الجوع الذى يملؤنا ، الخوف الذى يدثرنا ، على أننا كنا نستمد من شجاعته المجنونة بعض الدفء ، نسير خلفه وهو يترنح نغوص فى أعماق الليل نضيىء الكشاف الصغير أسفلنا نستشف وقع الخطوات قبل الأرتطام (ببردورات) الطريق ، ثم نعود نخنق الضوء تحت صرخات رجال المقــاومة ، يملأون الليل انتشــارا ، زملاؤنا فى دوريات أخرى ، يعرفوننا من وقع الخطوات ·

– اطفىء النور يا (عباس أفندى) .

– الى أين يقودكم (أمين مسعود) .

– نتجرع حساء (الكوارع) الدافىء يبعث فى أطرافنا مزيدا من الطاقة ، تعوضنا عن ذلك الخواء الذى نصبه في الأرحام الصدئة ، النساء فى انتظارنا يحبسن الأشواق واللهفة ، يحبسن لعودتنا ، والأطفال يفرحون بمقدم الأبطال ، لاتعى عقولهم الصغيرة معنى الجفـــاف .

ولأننا لا نريد تكدسـكم تحت العواقب الوخيمة يتم تقسيم القوة العاملة الى فريقين ، وردية أولى بقيادة (عباس محمد الطيب) وردية ثانية بقيادة (سعيد الجمال) ، خمسة عشر يوما للذود عن مرفقكم الكبير ، باقى أيام الشهر أجازة ميدانية تهرعون فيها الى ذويكم ، تدبرون أموركم .

نجلس الى أطباق الحساء الساخن داخـــل المطعم الصغير ، تحزمنا الأبواب المغلقة حتى لا يتسرب الضوء الأزرق المكفهر الى الخارج ، لايغيب عنا سوى (فتحى حسنين) أعزب ، لا يهتم كثيرا لأمر الطاقة الكامنـــة فى حساء (الكوارع) ، لا يرقص مثلنـــا ، لا يحسب للأجازة الميدانية ، لايفرح ، أمه هناك ، يكتفى بمكالمة تليفونية صباحا خلسة فى خروج آل (علام) للعمل ، للنادى .

– مريضة يا ولدى . أفتقدك .

– أبحث فى كل اتجاه يا أمين عن مكان يضمنا .

يحمل أحزانه الى بيتهم الصغير بالعزية ، يقضى أجازته هناك

يضرب الأرض بفأسه ، يروى الزرع ، (الأمل الأخضر لم يمت بعد) يهزنى تفاؤله دائما ٠

يخرج بعضنا الى الحاج (محمد العطار) ، يطرقون باب منزله فى جوف الليل غير قانعين بالآثار الكثيرة للحساء الأبيض ، يتلقفون توليفته السحرية ٠

ـ انه يستنزفكم يا أوغاد ٠

ـ لا يهم ٠ فقد ضاع (دكانه) تحت الردم ، لكنه يعيش من أجل أن يجهز لنا أكسير الاخصاب الغائب ٠

ـ وأنت يا جامع الجثث ٠ لماذا تتعاطى الحساء والسحر ؟

ـ ألست رجلا مثلكم ؟

ـ نضحك لأمر هذا الرجل ، يقضى أجازته أحيانا قابعا فى غرفته البعيدة بأطراف المدينــة ، يزين الجدران بصــور فاتنات الســينما ، يحــلم كثيرا ؛ (آه لو تعرفون ما وراءه ٠٠) يسرح (أبو الغيط) بينهم ٠

نعود أدراجنا من جديد الى (القبو) الذى يضـــمنا ، يهلل الرجال عندما أوزع اليهم استمارات السفر تلك التى أحبسها فى (أدراج) مكتبى تحمل توقيع (نوفل بك) تأتينى فى (بوستة) الاسبوع لا أتصرف فيها قبل حضور الوردية الثانيــة وســؤال (فرغلى) بالتحويلة ، (هل هناك اشارة ما ؟ أو حالة طوارىء) ؟ ٠

أعرف أنه يكذب أحيــانا من أجل استمارته ، كلنــا نحب أكاذيبه تلك الليلة ، نضحك كثيرا ، نغنى ، نلعب الورق ، لا ننام ٠

نخرج بعد صـلاة الفجر ، كل يحمل متاعه ، رفاق الوردية الثانية فى غطيط عميق ، نودع القبو ، نرتشف نسمات الصباح الباردة تنعش النفس ، نتجه ناحية منزل السائق (عبد الدايم) ، اتخذه استراحة له ولزملائه فى العمل ، يركن أمامه (أتوبيس) الشركة ، يخفيه عن الميدان العام حتى لا تناله قذائف الاستنزاف الغادرة ، نقفز .

نحتل الأماكن .

– صباح الخير يا أسطى (عبده) .

نحبك كثيرا هذا اليوم ، نقبل منك كل الكلمات اللاذعة التى تصوبها لنا .

– ربنا يخلى الشئون لولاها ما ركبتم الدرجة الأولى .

– لولا المحنة ما كنا فى حاجة الى استمارات الشئون ودرجتك الأولى يا عبده .

– ماذا لو يطير بنا هذا الأتوبيس ؟

– تلاحقنا طائرات العدو من الجانب الآخر على الفور ، هل نسيتم أمرهم ؟. العربة تخترق ضباب الصـباح ، توقظ الطبيعة بنفيرها العالى ، أركن وجهى الى الزجاج ، أرصد المساحات الخضراء والحقول المستوية ، لأختنق فى أحشائها ولا قبو .

فلاح يداعب محصول أرضه ، بقرة تجر ساقية بعد أن ربطوا عينيهـا .

بيوت طينية صغيرة ، شامخة ، لم تتصدع بعد ، أم تسحب حمارا فوق ظهره متاعا وصغارها ، طفل يقلب صفحات ما تحت شجرة بعيدة ، رائحة سماد الأرض تعانق أنوفنا ، لها سحر خاص

تلك المرة ، (الحياة حلوة ·· أليس كذلك ؟) أســـأل الذى عن جوارى يقف الأتوبيس أمام متاريس الشرطة الحديدية ، يقفز ذوو الزى الكاكى والشريط الأحمر أعلى الذراع ، (كل يفتح حقيبتـــه) ، يقلبون طيات ملابسنا القذرة ، يتأففون منها (اقفل ·· اقفل) ، يرتجف أحد الركاب فى آخر العربة ، يفتشون متاعه ، تسقط منه يضع رصاصات عيار (تسع مليمترات) ·

ـ متجه أنت للصعيد ؟

ـ نعـــم ··

ـ هل لديك شريك بينهم ؟

ـ لا ··

ـ انزل معنا بهدوء ودع الناس ينعمون بأجازتهم ·· بالسلامة يا أسطى عبده ·

حفظنا كل المدن والقرى المفروشة على الطريق ، نفيشـــة ، أبو صوير ، القصاصين ، التل الكبير (أين أنت يا عرابى ؟) ، العباسة (قف ·· أوراقك) ·· ثم فى اتجاه اليمين أبو حمـــاد ، ثم يلقى بنا الأتوبيس بميدان أبو خليل تحت العربات المتكدسة ، تمـــلأ جوفه ، اخترق الزحام بصـــعوبة بالغة ، الزقازيق ·· الزقازيق الناس ينتشرون فى كل اتجـــاه ، يأكلون ، يشربون ، يثرثرون ، لا يعلمون بأيامنا الثقيلة هناك ، يودع أبنـــاء المحنة بعضهم ، يفترقون ، يقفزون الى عربات أخرى تبلعهم الى زفتى · طنطا ، المحلة ، شبين ، وبلاد الله الواسعة ·

أتلفت حولى ، ألمحه ، يجرى ناحيتى ، يفتح ذراعيـــه ، أفتح صدرى ، أضمه ، أغمره بكل الأشواق التى جمعتها له ، قبلاته الصغيرة تملؤنى ·

ـ حمد الله على السلامة يا بابا ٠

يرفع حقيبة صغيرة من المتاع ، يسير الى جوارى ، أضم يدى على يده الصغيرة ، نتجه ناحية السوق كالعادة بعد كل لقـــاء ، يحسبون لعودتى دائما ، ترسله أمه ، ينتظرنى فى أبهى مظهر . شكرا يا (تفيده) ، يا عشرة العمر كله ، تتحملين العذاب والمحنة ؛ تمضغين الشكوى ، تعرفين ضيق ذات اليد ، من أجلكم أنتم أبلع النار هناك ٠

نجلس بالمقهى الكبير ، نحتسى شاى الرجال ، ما أخباركم ؟

ـ مازال هذا الصعلوك يطارد أختى ، صفعتها أمى ذات يوم وهى تتحدث اليه ، يرددون فى الحى أنها تحبـه ، سمعت يا أبى أنه يريد مقابلتك ، أخته مجنونة ، تأتى عندنا كثيرا فى غيابك ٠٠ سبت أمى ذات يوم ، لا أعرف السبب ٠٠

ـ أشرب الشاى ٠٠

أمتص ثرثرة الصغير المزعجة ، لا يجب أن أعود اليهم غاضبا لو أنى معهم طول الوقت ، لو لم تخرج من ديارنا ، لو كنت وحيدا ، لو ٠٠ لو ٠٠ لو أن واقعنا لا يغتال الأمنيات ٠٠ لعدت بهم الى مرفأ الأمان قبل أن تتعثر خطواتى فى أخبار الصغير المفزعة ٠٠

ـ حمدا لله على السلامة ٠٠ يا عباس أفندى ٠

أرد تحية الرجل ، لا أعرفه ، كل الشارع يعرفنى ، الرجل الغائب ٠

ـ أهلا يا مهاجرين ٠

ـ أولادى أمانة فى أعناقكم يا أبنـاء الحى ٠ نحن هناك ٠٠ نموت من أجلكم ٠٠

ـ فى عنينا يا عباس أفندى ٠

لماذا تسمحون لذئبكم الصغير بمطاردة ابنتى ؟ .. (هى تحبه).. تكذبون دائما ، طفلتى لم تبلغ الثامنة عشر بعد ، لا تفهم ، لا تعى ، ترسب دائما بالمدرسة ، تحرقنى أكاذيبكم ، تدمينى نظراتكم ، وابل من القبلات يمطرنى من كل اتجاه ، أنقشعت برودة هواجسى تحت دفء أحبائى ، حتى الصغير تعلق بأطرافى يملؤنى بقلاته من جديد ، بينما أنت هناك يا عشرة العمر ، تفضحك عيونك ، يمنعك حياؤك من الصغار ٠

ـ (أزيك يا تفيدة ٠٠ أزيكم يا بنات) ٠٠

أجلس الى الشرفة ، يلتفون حولى ، أحبهـم ٠٠ تفيدة نادية انصاف ، نصر ٠

ـ أخبارك يا أبى ؟

لا تهلعـون ، نحن فى أمان ، الاسـماعيلية فى انتظـاركم و ٠٠ و ٠٠ ما ذنبهم يا عباس ؟ لا تدعهم يبكون فى عذابك ، أنت بينهم الآن على الأقل ، الأعمار بيد الله ، غير الحـديث يا رجل ، لا تزعجهم بهواجسك ٠

هل تذكرون عندما عدت اليكم ملخطا بالوحل فى ذلك اليوم المطير ، أدعيت يومها أننى أنزلقت فى الوحل ، الحقيقة أنى كنت أركب أكتاف ذلك البغل ٠٠ كانت تلك البحيرة الكبيرة التى تكونت بفعل المطر تفصل بين ميدان أبو خليل والطريق اليكم فى كفـر النحال ، فأنتشر حمالو الموقف جميعهم داخـل البحيرة ينقلون الأفراد ، يعبرون بهم جوانب البحيرة مقابل (قرشين) ٠

ولأنني فى لهفة من أمرى لا أريـد أن أخلع حذائى ثـم أرفـع أطراف البنطلون مثل البعض ، ناديت أحدهم (شيال) ، أريد أن ترفعني للجانب الآخر ، طوق يده حول مؤخرتى ليرفعنى ، رفضت ، أريد أن أركب أكتافك ٠٠ (فوق بخمسة قروش يا بيه) ٠٠ تعنى درجة أولى أيها البغل ، لا يهم ، انقلنى أولا وهناك نتفق . يجلس القرفصاء ، أركب أكتافه ، يضم أرجلى بين ذراعيه بقوة ، سـوف أعطيك ثلاثة قروش ٠٠ (قلت فوق بخمسة يا بيه) ٠ أقسم لك أيها المحترم أننى لا أملك فى جيبى الآن سوى تلك الثلاثة قروش ٠٠ (قلت خمسة) ٠٠ أقسم ٠٠ وقبل أن أتوسل اليه مرة أخرى ، ألقى بى بعيدا ٠٠ عن أكتافه ليتلقفنى الوحل فى منتصف البحيرة ٠٠ وهو يسبنى ويلعن حظه على (زباين) آخر زمن ٠٠ ولكنى كنت أضحك فى ضحكات الآخرين لتلك الفعلة المجنونة ٠

ينفجر الصغار والأم ضاحكين لروايتى ، وأخذت أبحث فى رأسى عن روايات أخرى تطربهم ٠

غجرية تلك المرأة التى تفرش الأرض أمام شرفتك (يا عباس أفندى) ، تبيع الخضراوات ، الطماطم ، الكوسة ، وأشياء أخرى ٠

معظم نساء الحى لا يقتربن منها خوفا على سمعتهن ، صديقة لزوجتك وبناتك ، تجلس الى مكانك بالشرفة فى غيابك ، حولهـا صغارك ، يضحكون لسمومهـا ، أفعى ، تحوم حول صـيدها ، لانعرف ما تخبئه لكم ، حذار يا رجل ٠

– من تلك المرأة يا (تفيدة) ؟ ٠

– امرأة طيبة ٠ تقضى حاجاتنا ، تحمينا من عيون الذئاب الجائعة فى غيابك ، مجنونة فى غضبها ٠٠ يخافونها جميعا ٠

ـ يهمسون كثيرا فى أذنى بأخبارها ·

ـ يكذبون ·· يحقدون ·· نحبها دونهم ·

ـ لماذا يا تفيدة ؟

ـ ·· ·· ··

ـ لا تتلعثمى ·· قلت : لماذا ؟

ـ الحقيقة تتردد علينا ·· تريد ابنتنا لأخيها ·

ـ هل سقطنا الى هذا الدرك ؟

اللطمة القوية على وجه المرأة تزلزل أركان البيت ، تنشق الجدران الكبيرة ، تلفظ الأبناء ، يلتفون حول الأم ، يرفعون يد الأب عنها ·

سأقطع أجازتى أيها الخونة ، النار هناك أهون كثيرا من النار حولكم ، لا تركعوا تحت قدمى ·· لن أغفر لكم ·

ـ ما ذنبنا ·· ابق معنا · أو خذنا معك ؟

العيون جميعها تطـارد الرجل ، تلاحقه بالاتهـام ، تسقطه لأقرب كرسى ، يضم يديه يخفى ملامح وجهه ، ينفجر باكيا فى بكائهـم ·

(وابتدى ·· ابتدى المشوار

وآه يا خوفى ·· من آخر المشوار

جنة ولا نـار ··

آه يا خـوفى ··)

دخل عليهم (أبو الغيط) ٠٠ يحمل تحت أبطه بعض الأرغفة بعد أن امتلأت يداه بالفجل ، حلة فول مدمس ، كيس طعمية ، كيس طماطم ٠

ـ تعال يا (أرنب) خذ العشاء

أسرع اليه يتقف الأكياس منه ، بينما اعتدل الرجال فى مجلسهم تأهبا لتناول العشاء ، (أبو الغيط) يشترى كل الأشياء من حسابه الخاص ، ثم بعد الأكل يحصل المستحق على كل منهم فى الوليمة بما فيها ثمن كوب الشاى (عشان الهضم) ٠

ـ لم تصدقونى عندما قلت لكم أن البنت تنام عنده فى البيت يتصنتون دائما لأحاديثه باهتمام بالغ ، أذنه كبيرة ترصد ما يدور بالمدينة فوق الأرض ، لا يصرح لهم عن مصدر أخباره بالرغم من صحة معظمها ، ربما تصيد بعضها الآن من أحد رواد دكان (عبد الراضى) ٠

ـ قبل أن أنسى ٠٠ رتبوا أموركم ٠٠ الليلة اشتباك ٠٠ ستعبر احدى قواتنا خلف خطوط اليهود ٠

ـ ربك يستر ٠٠ لن أخرج كالعادة ٠ (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) ٠ لقد صدق حدسهم ، تلقف بعض الأنباء من دكان (عبد الراضى) ٠

كالعادة يعود اليهم بأخبار كثيرة كلما ذهب لشراء الفول ثرثار هو ، يتحدث مع كل الناس ، فى كل الأمور ، يجلب لنفسه المصائب ولرفاقه أيضا ، ذات يوم استدعته التحريات العسكرية لتتأكد من طبيعة وجوده ٠

– فضولى .. غبى .. لاتسال العسكريين عن أى شىء حتى لا أقدمك للمحاكمة .. أطردك من المنطقة .

ركع ، قبل حذاء الضابط حتى لايقرر (غير مرغوب تواجده فى المنطقة) ، هذا يعنى أنهم سيرحلونه ، ينقل الى عمل آخر خارج المدينة ، أو أجازة مفتـــوحة ، فى جميع الأحوال يحرم من اعانة التهجير (الخمسة وعشرون فى المائة زيادة عن الراتب الأصلى) ، يرجع (قفط) بالصعيد يجلس الى جوار النساء والأولاد الصعايدة ينهشون لحمه هناك .

– لن أفعلهـا .

بالرغم من ذلك لم يرجع عن عادته ، قد أصم أذنيه ، لكن عينيه مفتوحة دائما .

عندما يغلق (عبد الراضى) أبواب دكانه مبكرا فهذا يعنى أن بعض الجنود قد مروا به لشراء ما تشتهيه أنفسـهم الفقيرة ، سندوتش فول ، طعمية ، قطعة جبنة قديمة ، زجاجة (كازوزه) .

– بسرعة يا (عبد الراضى) .. عندنا عملية دلوقتى .

– خمسون قرشا .. سندوتش فول .. و .. و ..

يدفعون ، ثم يسرعون الى مركباتهم ، يجرون فى اتجاهات مختلفة يختبئون فى حنايا الشوارع المظلمة ، بعد أن صرخ أحدهم (الشرطة العسكرية) .

– ألست معنا فى المقاومة الشعبية) ؟

– نعم .. ولم أقصر فى التدريبات أبدا .. وسلاحى معى بالدكان دائما مثل جميع التجار فى المدينة .. لم استفسارك ؟

ـ تعرف يا (عبد الراضى) أنهـــم قد لايعودوا سالمين من عملياتهم هذه ·

ـ أعرف طبعا ·· ربنا معهم ·

ـ اذن ·· لماذا تستنزفهم يابن الكلب ؟

ساهمون بعد تناول العشاء ، أعينهم تتابع حركة شفتيه ·

وهو يحتسى الشاى ، يتلذذ فى التفافهم حوله ، ينصـتون اليه فى خشوع بعد أن يقفل (الأرنب) الراديو ·

(والليلة ·· الليلة ·· الليلة

سهرتنا حلوة الليلة) ·

ـ فى البدء كنت مثلكم أكذب ، ما أسمع ، لا أصدق شيئا ، لكنى عرفت الحقيقة منذ ساعة فقط ·

ـ أين ؟ وكيف ؟ تسأل أعينهم النهمة للتطفل ·

يصعب على المرء أحيانا أن يحصر عدد الأشـــخاص الذين يضمهم (القبو) أثناء الثرثرة والسمر غالبا ما يتوافد زملاء آخرون من (بدرومات) أخرى ، فئرانا يقرضون سير الناس أينما كانوا ، فى المهجر ، القصور ، القبور ·

ـ ذهبت اليه ·· أسأله لماذا انقطاعه عن مجلسنا ؟ ثم شربنا الشاى سويا ·

ـ شاى حقا أم خمر (يتضاحكون ·· يتغامزون) ·

ـ والله ·· شـــاى ·· هل تصدقون ؟ (أمين مسعود) يشرب شايا ويترك الخمر والفضل لها طبعا أقنعته أنها لن تتزوج مدمنا ·

– ماذا تقول يارجل ؟ هل تهزأ بنا ؟
– لقد تزوجوا فعلا ٠

لقد أذهلهم ما يسمعون ، الجميع يحبونها ، ويحلمون كثيرا بها ، (أمال الدمياطى) ٠٠ تتزوج هذا الصعلوك ، لقد رفضت كثيرا من الضباط العسكريين بالمنطقة ، الذين يحومون حولها كل يوم ، خاصة هذا الضابط ذو الرتبة العسكرية الكبيرة الذى يصحب اليها كل يوم جنديا مصابا ، كى يراها فقط ، حتى شاع أنه يجرح جنوده خصيصا ويأتى بهم اليها لتضمد جراحهم ، وجراحه ، ولا ينسى فى لحظات أسره بجمالها أن يعمل مساعدا لها ٠٠ يناولها بعض الشاش ، القطن ٠

– لماذا لا تصحب جنودك ا المستشفى العسكرية أو المستشفى الأميرى سأله أحد عشاقها فى خبث وهو كاظم الغيظ ٠

– لأن الامكانيات هنا أحسن (ثم ينظر اليها) ٠

لا يخلو يوم من مشاجرة بين عشاقها الذين يتصارعون على ودها بالسب والضرب والركل ٠ أسعدهم حظا من ينزف أكثر ، لاشك أنها ستضمد جراحه ، ستمسح على رأسه بيديها ، ربما همست فى أذنه بكلمات تنام فى أحلامه ٠

وصلت الى ادارة المستشفى شكاوى كثيرة من مجهول ، تسببت هذه البنت فى خراب البيوت العامرة ، الرجال لا ينزلون أجازتهم الميدانية يرقدون حول بابها ، لايرسلون قروشهم الصغيرة واعانة التهجير الى ذويهم ، فقط يقدمون الهدايا لها ، و (أم السيد) تعرف الكثير ٠

حضرت احدى الزوجات يوما بعد أن تخطت كل نقاط التفتيش المزروعة على طول مداخل المدينة لتمنع النساء من الدخول .

كانت فضيحة كبيرة ، ضربتها الزوجة حتى أدمتها ٠

ـ طلقنى من أجلك يابنت الكلب !!

تصرخ وهى تنهش أظافرها فى جسمها البض ٠٠

تم طرد الزوج خارج المدينـــة ٠٠ غير مرغـوب تواجـده فى المنطقة لدواعى الأمن ٠٠ هنـــاك ناس طيبـــون ، لا يقبلون الظلم يتعاطفون مع البنت دائما ٠

حصلت على عقـد عمـل مغر بالكويت ٠٠ رفضت عائلتهـا أحلامها المسمومة ، ولأنه لابد من رجل لاستخراج جواز السفر ، عرضت عليه أن يكون الزواج والجواز ٠٠ وافق ٠٠

ـ لماذا هو بالذات ؟

ـ لأنه وحيد ٠٠ بلا أهل يحاسبونه ويحاسبونها ، ثم نظرا الى اسرافه فى الخمر ، انه لا يبالى بعواقب الأشياء ، تستوى عنده الأمور جميعا ٠

ـ لم يكن كذلك فى الزمن البعيد ٠

ـ كفاية كده يا (أبو الغيط) ٠٠ افتح الراديو يا (أرنب) ٠ دعنا نسمع أخبار البلد ٠٠ أحسن ٠٠

لم يستطع النوم ، الأفكار السوداء تدمر رأسه ٠٠ ماذا لو أن ابنته هربت مع هذا الصعلوك الذى يطـاردها مثلما فعلت (أمال الدمياطى) عندما تحدت أهلها ؟

طيب هو حقـــا ٠٠ لكن المكان قذر ٠٠ يرقد فوق سريره المعدنى فى أطراف (القبو) بعيدا عن (جردل البول) ٠٠ عيناه فى عناق دائم مع سقف المكان ، (سابح فى ملكوت آخر) ، هــكذا يعقب زملاؤه كلما اصطدمت أعينهم به ٠

(ترن ‥ ترن ‥ تن ‥ تن ‥ ترانك ياولاد) ٠

يهرعون يلتفون جميعا حول سرير عباس أفندى ، يسحب التليفون من تحته ، يرفع السماعة ٠

ـ معك الزقازيق ‥

ـ عباس الطيب من فضلك ‥

ـ أنا عباس ‥ من ؟

ـ أنا ‥ نادية ‥ آسفة يا بابا ‥

يتسمر الرجل ، ينسحب الرجال من حوله ، يلصق السماعة الى أذنه لا يريد أن يسمع أحد همومه ٠

ـ آلو ‥ آلو ‥ بابا ‥ أنا آسفة يابابا

ـ آلو ‥ سى عباس ‥ معلش ياخويا ‥ احنا غلطانين والنبى ‥ لاتزعل ‥ زعلك وحش ‥ يحصـــل لك حاجة فى الغربة ‥ ندوخ من بعدك ٠

(الكلمة نبهت الرجل الى حاجتهم له ، يمســح دمعة طفرت بها عينه) ٠

ـ خلاص يا (تفيده) ‥ خلاص ‥ خذى بالك من الأولاد ٠

ـ ربنا يصلح حالك ولا يحرمنا منك ٠

ـ أعطينى (نصرا) أكلمه ‥

ـ بابا ‥ أزيك ‥ أنا عايز منجة يابابا ‥

ـ مفيش منجة ‥ احنــا فى شتا ‥ ســأحضر لكم (فول سودانى) ٠

ـ أنا عايز ..

(تن .. تن .. تن .. المكالمة انتهت) ..

ارتاح كثيرا لهذه المكالمة ، أزاحت عن صدره كابوسا عاتيا .

ـ أريد كوبا من الشاى

يتعجبون .. لم يسبق له أن تناول الشاى فى مثـــل هذه الساعة.

ـ دعونا نخرج للخارج ، نشم الهواء ، نجلس فوق النجيل الأخضر الذى يفصل بين (القبوين) ، ربما رصدت الأعين شـيئا يدغدغ الحواس يخرجون فى أثره ، يتركون عباس أفندى يغط فى نومه ، وحيدا فى القبو يجلس اليهم بعض من جهاز التمريض المكلف بالوردية الآن ، يقتلون ليلهم بعيدا عن رائحــة المطهرات الكيماوية التى تكتم الصـدور ، بعض حولهم بعض المرضى الذين يبلعون الثرثرة لتسكن آلامهم .. وتندس بينهم وســط الظلام الحاجة (أم السيد) الممرضة الشمطاء .. عيونها تفضحهم جميعا ، تعرف ما يشتهون ، تبيعهم الوهم والدجل ، تحمل رسائلهم الى بقايا النساء فى الزمن الأخرس .

لا أحد يجرؤ أن يرفض لها طلبا ، حتى المهندسين والأطباء المقيمين فى الجانب البعيد يقدرونها كثيرا ، تعرف كل الأسرار ، تتلقى الاعتراف من كل العيون الهائمـة ، الويل لمن تغضب عليه ، تؤرخ لميلاد أبويه اذا لزم الأمر . نظرتها تخرس كل الرجال . يتوارى (أبو الغيط) بأحاديثه تحت كلامها الذى يثير اللعاب .

ـ فعلتها (آمال الدمياطى) من خلف ظهرى .. لذا وقفت فى طريق اعتماد أجازتها المفتوحة .. لكنها قتلتنا باستقالتها .

ـ عباس (أفندى) رجل طيب. اعتمد أجازة (أمين مسعود) .
ـ وأنت طيب .. بس لسانك عايز قطعه . (يضـــحك الرجال جميعا) .
ـ سألت عنك منذ أيام قالوا نزل ضيفا على قسم البوليس . ماذا رصدت أذناك هناك ؟
ـ أمور كثيرة تملأ مساحة ليلنا .
ـ تقيأ يا رجل (يضحكون لها) .

ـ تم ملء بعض العربات بمنقولات احدى المرافق بالمدينـة لاستخدامها فى العمليات الجديدة المفتوحة فى أرض المهجر البعيدة ، وذلك بغرض استثمار الطاقات الخاصـــة بهذا المرفق حتى تدر بعض العائد المادى يسد جانبـــا من غول الاستنزاف الذى تبلعه المحنة كان المخزنجى ورفاقه يقومون بتحرير (أمر الافراج) مـن صور كثيرة (لا تمثل جانبا من القيمة الحقيقية للمنقولات) ، تترك صورة عند بوابة المرفق قبل الخروج وصورة لرجال الأمن بالمنطقة وصورة لبوابة الخروج من المنطقة العسكرية وصورة مع السائق وأخرى للمخزنجى ، صـــورة ، صورة ، ولا أحد يعود الى مراجعة ما تحويه من كتابات ميتة .. لكن من يهمهم الأمر كانوا فى انتظارهم تلك المرة عند آخر بوابة .

ـ ناس تمـوت .. ناس تسرق .. يستحقون الشنق على أبواب المدينة .

ـ أيضا يجرى التحقيق مع (محروس الجن) ، المقامر القابع بين أطلال المدينـــة ، يتصـــيد ضعفاء زمن النكســـة ، يخسرون ما يملكون ، أحدهم قامر بعقار الجدود ، جن جنونه فى الخسارة ،

حـاول الهرب من أهله فى الانتحار ، يرقد الآن فى المستشفى الأميرى ٠

– شياطين أنتم أيها الرجال ٠

- ٧ -

(يا مسافر على بحر النيل
أنا لى ٠٠ فى مصر خليـل
من حبه ٠٠ ما بنام الليل
على بلد المحبوب ودينى) ٠٠

النحيب المكتوم يصدع ظلام القبو ، يهب الرجل من مرقده ، يوقد المصباح خلفه تمسح عيناه الأجساد التى تغـط فى سبات عميق ، تستطلع مصدر الأنين ٠٠

– أنت يا فتحى ؟

– نعم يا عباس أفندى ٠

– لماذا يا ولدى ؟

– كنت قلقا ، أقلب همومى فى سواد قبونا ، عبثت بمؤشر (الترانزستور) فى صوت خافت حتى لا أفزعكم ، ربما استطعت أن أطرد ذلك الهاجس الجاثم فوق صدرى ، فكانت الأغنيـة التى تبكى أمى فى مسمعها ، تذكرتها ، فبكيت أمى وخليل أخى ٠

– مريضة هى ؟

– تقوى فقط على أداء حاجتها ، السن يفضحها ، عبء على من يستضيفونها ، فكرت فى احضارها خلسة الى بيتنا الصغير ٠

ـ لا تفعل ٠٠ لن تستطيع أن تعيش وحدها فى قرية خاوية ٠

ـ لذا لا أنام كلما فكرت فى كيفية البحث عن مكان يحتوينا٠

ـ حاول أن تنام الآن ، أنسيت موعد التدريب غدا ٠

ـ لم أنس شيئا ٠٠ لكن أنين أمى فى البعد يطرد النوم والأحلام ٠

ـ توكل على الله ، دعنى أدير أمرها ٠

ـ حقا يا عباس أفندى ٠ هل تستطيع ؟

ـ العبد فى التفكير ، والرب فى التدبير ٠٠ فقط ٠٠ دعنا ننام الآن ٠٠

ـ يمكنك أن تعرف تفاصيل تلك الأيام السوداء الكئيبة اذا ركنت بعض الوقت الى أحاديث (فتحى حسنين) ، وحده دوننا كان مصهورا فى بوتقة النيران ، آثارها محفورة على جدران جسده ووجدانه ، مسئول الدفاع الشعبى ، يحفظ القانون ، والميثاق أيضا، يفهم فى أمور كثيرة ، لا نعرف من أين يأتى بالذى يقوله ، غضب ذات يوم عندما قال أحدهم ان الاتحاد الاشتراكى لم يعلمهم سوى الكلام ، لذا عليك أن تسمع فقط ، لا تبدى ملاحظة ما ، حتى لا يعرض عنك ٠

خرجنا الى شاطىء القناة صباح الأحد (١١ يونيو ١٩٦٧) ، نفرش الرايات البيضاء ، نقيم معابرنا الأهلية ومحطات الاستقبال، بعد أن نزفنا كثيرا فى جرح الوطن ، نحسب لدهاء العدو الزاحف

خلف النكسة ، نتلقف بقايانا الشاردة ، نضمد الجراح والشرخ فى الصدور ، قليل من الخبز والماء ــ وبعض الكلمات الطيبة تمسح عن كاهلهم بعضا من مأساتنا ، نعبر ، نتوغل داخل سيناء ، نعود بعشرات الشاردين فى ابتسامة رثاء ، ثم نسهر على الشط الغربى للقناة ، بدون سلاح ، لا نملك سوى أرواحنا ٠٠ خوفا من تسلل العدو سط الذهول والصدمة ، لم يكلفنا أحد بذلك ، بعدها ٠٠ تدارك المسئولون أمر استقبال الجنود العائدين ٠

اسمها (النكسة) ٠٠٠

لا ٠٠ لا ٠٠ صرخنا فى وجه الليـــل الأســـود الذى يكتنف المدينة ، لم نعر وابل الطلقات الذى يطوقنا من كل الاتجاهات اهتماما ٠

(قم واسمعها من أعماقى ٠٠
ابـــق ٠٠
فأنت الأمل الباقى) ٠

ما أن يفرض الليل حصيرة الظلام ، تطوى المدينة تحتها حتى تنطلق صرخات الهـــلع المهزوزة (أطفئوا الأنوار) ، تمتزج فى رصاص بعض الفتية الطائش (فرح العمدة) ، تسلموا السلاح دون تنظيم ، بل دون تســـجيل فى كثير من الحالات ٠ لم يبـــدأ تدريبهم بعد ، يخرج رجال المدينة اليهم ، يسحبون السلاح الذى تم توزيعه عليهم ، يشطرون الليل ، يستجمعون ارادتهم ، يعرفون طريقهم ، شيوخ المقاومة عبر معارك الانجليز (١٩٥١ ــ ١٩٥٣ ــ ١٩٥٦) ، سلاحهم موجود ٠٠ نلتقى بالنادى الاسماعيلى ، (كنت

حكمدارا للجماعة التى تشرف على المنطقة الأولى من الحى الأفرنجى ، نحرس الشوارع ، المرافق ، ونحمى البشر ، خذلنا السلاح العقيم الذى نعلقه فوق الأكتاف فى مذبحة الأيام) .

فى النادى الاسماعيلى .. هزتنا التدريبات الشاقة الراقية على الأعمال الانتحارية ، الجميع تحدوهم الرغبة الجارفة لمواجهة العدو .. هؤلاء أبناء الاسماعيلية فى معهد التربية الرياضية ، هؤلاء مجموعة من العاملين بالهيئة ، مجموعة من العاملين بشركة استصلاح الأراضى التى احتل العدو مواقعها ومعداتها على البر الشرقى للقناة .. وهؤلاء .. وهؤلاء .. و ....

ركنت الى أفراد جماعتى ، نرقبهم .. هل تستطيعون مثلهم ؟

ـ نعبر اليهم ان شئت .. ننتقم .

ـ قليلا من التريث .. مزيدا من الاستعداد .. ألم نتعلم بعـــد ؟

فى مساء السبت (١٥ يوليو ١٩٦٧) كان القذف الشديد يشطر ظلام الليل الهابط على المدينة فى كل الاتجاهات ، نخرج فى البرق الخاطف الذى تحدثه دانات المدفعية عند انفجارها ، نأخذ أماكننا تحت الانفجارات المدوية ، نحمـل أسلحتنا الصغيرة التى لا قبل لها بمقاومة الذى يجرى حولنا ، لكنها تؤنس وحشتنا ، ننتظر فيها محاولة عبور العدو خلف هذا القذف ...

(قد علمتنا الحرب من أول مرة كيف نفتح عيوننا ونرى) .

وفى صباح الأحد (١٦ يوليو ١٩٦٧) كان القذف شـديدا ومركزا على محطة السكة الحديد وكل أنحاء المدينة .. أيضا تم قذف أرض الملعب الكبير فى الموعد اليومى للتدريب ، وقد شاء الله أن يكون هذا اليوم فاصلا بين دورة وأخرى من دورات تدريب أفراد المقـــاومة ..

(ادخلوا الى الأدوار السفلى للبيوت أو الى المخابىء لا أحد فى سيارة قافلة الاستعلامات التى تصرخ ٠٠ ولا أحد يسمع لها) ٠

كنا نتبادل التهنئة بالنجاة بعد كل قصف ، ثم نستفسر عن الآخرين ٠٠ من مات ؟ من أصيب ؟

عندما تعرضت المدينة الى قصف مدفعية العدو فى العاشر من سبتمبر كان الموقف يختلف كثيرا ٠٠ لا أحد يجرى فى الشوارع ٠٠ الكل فى المخابىء ٠٠ لقد تم الاستفادة من مأساة الخامس عشر من يوليو ٠

(كانت حلقات التدريب فى أرض الطابور جديدة من نوعها ، لم تكن تشمل فحسب فك البندقية وتركيبها واستعمالها ، شملت أيضا مطالب بمناقشة كل الأمور ، النكسة وأسبابها ، ازالة آثار العدوان وما يشملها من معان ينبغى أن تعمم على كافة المجالات ٠٠

لم يكن الوقت يسمح بايجاز كل هذا معا ٠٠٠ فليكن التدريب على السلاح أولا ٠٠

(أيها الرجال ٠٠ المقاومة ليست هى فحسب حمل السلاح ، بل كل ما يقدمه كل فرد لاستمرار الحياة والعمل والانتاج) ٠

ـ ساءنى ما ألحقته بالحاج (عبد الكريم) ٠

ـ لم أستطع صبرا ٠٠ ضربته ـ دائما يفكر فى نفسه ٠٠٠ الجحيم والطوفان لمن بعده ، لم يهتم بنزيف الوطن ٠٠٠ فقط يريد تعويضا عن الأضرار التى لحقت بأرضه نتيجة العمليات الحربية ٠

(ـ نحارب من أجل أرضنا جميعا ٠٠٠

ـ لم أطلب منكم أن ٠٠٠٠٠٠) ٠

لطمته قبل أن تذبحنا باقى كلماته المحيطة ، حفظناها جميعا، كثيرا ما رددها علينا فى المكتب التنفيذى ونحن نبحث فى كيفية الصمود والتصدى ٠

(ضاع الشمام والبطيخ وكل الزرع ٠٠

ـ ليتك ضعت معهم أيها الأسود) ٠

سلبيته تخذلنا أثناء تدريبات المقاومة ودائم الخلاف داخـل التشكيل الذى يضمه ، يزعجنا كثيرا فى كل اجتماع برغباته ، لم يكتف بمطـالبات التعويض بالبـرق والهاتف ، ضربته ضربا مبرحا ٠

لم يتقاعس الرجل عن وعده ، أخـذ يفكر فى المشكلة التى يعيشها (فتحى حسنين) ، يقلبها فى حنايا رأسه تمنى ذات يوم لو كان ابنه فى عمره وشخصيته ، كثيرا ما أعلن ذلك صراحة على مسمع من أهل القبو حتى أن أحدهم همس فى أذن الذى عن جواره (صاحبنا بيرسم لبعيده) ٠

ـ ما رأيك أن تعيش أمك مع أولادى ؟

ـ يشرفنى ذلك كثيرا ٠٠ أخشى احراجكم ٠

ـ سندبر لها غرفة خاصة ٠٠ أمانة هى فى أعيننا ٠٠ فقط لى بعض التحفظات ٠

ـ أعرفها ٠٠ ولن أزورها الا فى صحبتك ٠

ـ معذرة يا ولدى ٠٠ ما كنت أود لكنك تعرف ألسنتهم ٠٠ تذبحنا كل يوم داخل (القبـو) ٠

فرح (فتحى) كثيرا ، لم يكن يحلم بمأمن لأمه أفضل من هذا ، سمع عن أخلاق الرجل ومروءته ، اليوم صدق حدسه ٠

– متى يمكن نقلها اليكم ؟

– من الغد ان شئت ٠

انهال على الرجل ، يغمر وجهه بقبلات الشكر والعرفان وهو يصف له الطريق الى منزلهم (الزقازيق أقرب من القاهرة) ٠

– آلو ٠٠ آلو ٠٠ عباس أفندى من فضلك ٠

– آلوه (يا فتحى) ٠٠ هل أحضرت أمك ؟

– نعم ٠٠ الأولاد معك ٠

– آلو ٠٠ كيف حالك يا (سى عباس) ؟

– الحمد لله ٠٠ كويس ٠٠ كيف حال الأولاد يا (تفيده) ؟

– كلهم بخير ٠٠ وقاعدين مع الحاجة أم الأستاذ (فتحى) ٠

– جهزى لها الغرفة اللى جنب الأولاد ٠٠ اهتمى بأمورها ٠

– جهزت كل شىء ٠٠ البنات فرحين بها ٠

– ان احتجتم شيئا اتصلى بى ٠

- ٨ -

– يجب أن تناموا مبكرا هذه الليلة ٠٠ لدينا أعمال كثيرة صباح الغد ٠

– زيارة أخرى ؟

ــ نعم ٠٠ المحافظ ٠٠ رئيس المرفق ، وزيرة الشئون الاجتماعية ، وبعض كبار العسكريين من القاهرة ٠

ــ ماذا وراءهم يا عباس أفندى ؟ تعرف الكثير وتكتم ٠

ــ المرور على جميع منشآت المدينة ، زيارة الجبهة ، بحث مشاكل المهجرين ، الوقوف على منشآت المرفق ، والاطلاع على الخطط البديلة ٠

ــ أى خطط تلك ؟

ــ من أين لى أن أعرف ؟

ــ (نوفل بك) يحبك ، لا يخفى عنك شيئا ٠

ــ هو أيضا لا يعرف ٠

ــ تقسم ؟

ــ أقسم ٠٠

عامود الدخان يتصاعد من محطة السكة الحديد ، سيارة احترقت عن آخرها ، أعراف كثيرة للأشجار الصرعى ، بقايا دماء على الأرض ، عربة (حنطور) مقلوبة على ظهرها وقد نفق حصانها ؛ كنيسة تهدم جانب من السور المحيط بها ، حمار آخر ملقى صريعا ؛ أسلاك التليفونات تفرش الأرض ، أنقاض بيوت حى الفقراء ، قط ميت ، سروال ذو رجل واحدة ، أطفال موتى ، جثة غير محددة المعالم ، ثم صورة لخاتم ذهبى ما زال فى مكانه فى الأصبع الأسود المتقلص ، ثم صورة الطيار الأسير ، خلفها صورة حطام الطائرة ، وصور كثيرة تفرش قاعة المكتب التنفيذى ، يقف عندها ضيوف المدينة فى ذهول كامل ٠٠

– كل تلك المجزرة كانت فوق أرضكم ؟

– هناك ألوف أخرى من وثائق الجريمة ، حجبناها من المعرض حتى لا تدمى مشاعركم ·

يقول (بدوى) المصور النشط للضيوف ، سبق أن سجل من قبل صورا لمعارك سنة ١٩٥٦ ، بينما سجل أبوه صورا لمعارك الألمان سنة ١٩٤٥ ، وصورا لمعارك الشرطة ١٩٥١ ·· عائلة تملك جانبا وثائقيا هاما من تاريخ المنطقة ·

اجتمع الضيوف برجال المقاومة الشعبية فى النادى الاسماعيلى ··

– نحمل لكم كل التقدير ، نعرف أنكم تضحون بسخاء ، وبحب ·· نسجل لكم كل أعمالكم البطولية الخارقة خلف خطوط العدو ، وفى نتوءات المدينة ، ولأن المعركة قائمة لن نكشف أوراقكم، فقط نسجلها فى سرية تامة ليوم يعرف فيه الوطن ماذا قدمتم له ، كما سجلنا لآبائكم من قبل دورهم البالغ الأهمية فى اطلاق شرارة التحرر الوطنى عندما وقفوا خلف رجال الشرطة فى معركتهم ضد الانجليز فى ٢٥ يناير ١٩٥١ ، ليزحف النضال الأكبر من عندكم ليشمل كل المنطقة العربية من حولنا ·

– الأيام طالت أكثر مما قدرنا لها يا سيدى ·

– اطمئنوا ·· الساعة آتية لا ريب فى ذلك ·

كالعادة بعد الاجتماع بالمسئولين الكبار يتم توزيع بعض الهدايا الرمزية (يسمونها الترفيه) ·· من جميع شركات الانتاج بالوطن ، صابون ، شاى ، سكر ، شيكولاته ، روائح ، بسكويت ، معلبات اللحم ، العصير ، وأشياء أخرى كثيرة من أجلكم يا رجال الجبهة ·

الرجال يحزمون هداياهم الصغيرة الى متاعهم ، يحملونها الى الأهل فى الاجازة الميدانية ، انهم يحسبون لتقدير الوطن لهم ٠

يخرج الرجال في شمس كل صباح الى أعمالهم اليومية المعتادة، رجال مرفق المياه والمجارى يصلحون المواسير المتفجرة فى انفجار المأساة ٠

رجال النظافة يرفعون الأنقاض ، يكنسون الطرقات والشوارع رجال المزروعات يرشون الزرع ، يضمدون جراح الأشجار المصابة، يقتلعون الجذور الميتة ، يزرعون أشجارا جديدة ٠٠ (أبدا لن يموت الأخضر فينا) ٠٠

رجال التليفونات والكهرباء يرفعون أعمدة الأسلاك الصرعى ، يركبون خطوطا جديدة ٠

رجال الطرق يمهدونها من جديد بعد خروج الأحشاء فى عمليات القـــذف ٠

وما أن تغرب خيــوط الشمس حتى يهــرع كل الرجال الى أدوارهم المرسومة فى خطة الدفاع الشعبى ، الجميع يرقبون يوم العودة ، ينتظرون ٠

شعور بالزهو يملؤه وهو يقطع الشارع الى منزله ، عينا ترصد كل الاتجاهات ، لم تعد تبحث عن موضع للأقدام كالعادة ، يستمد بعض القوة من الفتى الذى عن جواره ، (آه لو تعلمون بقوة لسانه ٠٠ انه لكم) ، خلفهم يتخبط الصغير (نصر) فى حقيبة صغيرة من متاع الأب ، لم يجلسوا على (المقهى) تلك المرة ٠٠ خاف أن يفضحهم اللسان الصغير عند (فتحى حسنين) ٠

ـ اشتقت اليك (يا ولدى) .. تأخرت كثيرا .

ـ أنفاسك فى دمى يا أمى ، صورتك ودفء نبراتك لا يفارقانى أبدا ، فى طوابير المقاومة ، تحت شجرة (خليل) .

ـ خشيت فى غيابك أن يحجب الموت رسالتى اليك .

ـ معاذ الله ، طول العمر لك يا أمى .

ـ الاسماعيلية أرضى .. لا تحرمنى من ترابها الأخير .

ـ لماذا كل تلك الهواجس المفزعة الآن ؟

ـ هى وصيتى أمانة فى عنقك ما دمت حيا .

ـ أستغفر الله .. جئت أركن رأسى الى صدرك الواسع أستمد منه بعض الدفء ، أرتشف كل الحب الذى أفتقد .

ـ أخاف أن تبلعك الأيام والأحلام ، كما بلعنى الترحال من قبل بحثا عن أسباب الحياة .

ـ أفصحى يا أمى .. ماذا يحمل صدرك ؟

ـ (زينب) يا ولدى .

ـ لا عليك .. لقد كتبت لى كل شيء .. مزقت رسالتها كما مزقتنا النكسة .

ـ حمدا لله أنك عرفت .. خفت أن يمتد بك الحلم والكنز تحت أقدامك .

ـ لا أفهـم .

ـ اخترت لك يا ولدى .. قبل أن تدبر الفرصة .. والأصل طيب .

ـ لكن ..

(ابنى الوحيد ع العز أنا (ربيته) ٠

حبيه يا غاليه قد ما حبيته ٠٠) ٠

مبروك يا عباس أفندى ٠٠٠ مبروك يا أستاذ فتحى ٠

بعد أن قام برى الأرض عاد الى قلب (خليل) تحت التوته ، حفر اسم (ناديه) الى جوار اسمه فى طرف السهم الأسفل ، وحتى لا يظل (خليل) وحيدا حفر الى جوار اسمه فى أعلى السهم ٠٠ اسم ٠٠ (مصر)٠

جلس (أبو الغيط) كعادته ، حوله رفاق القبو ، ينصتون الى أحاديثه الطويلة الممتدة ، تبعثر اليهم أخبار (البدروم) المقابل ٠٠ أو أخبار الغائبين عن مجلسه ، لذا كانوا حريصين على الحضور دائما حتى لا يبحث لسانه عنهم ٠

ـ متى الزفاف يا عباس أفندى ؟

السؤال المنطلق كالسهم يوخز الرجل فى مرقده ، يعرف انه يريد أن يؤكد نبوءته لهم ٠

ـ بعـد أسـبوع !!

(يرد بلا اكتراث ٠٠ اليوم ينام ملء جفنيه) ٠

ـ ألم أقل لكم ٠٠

مبروك يا فتحى ٠٠

لقد عرفت نبأ زواجك بالصدفة ، كنت فى طريقى من (بنغازى) الى الدلنجات بحيرة ٠٠ حيث تقبع عائلتى الصغيرة كما تعرف ، وصلنى خطاب منهم ينبهنى الى شدة مرض أبى ، أسرعت اليهم فى صحبة زوجى ، الطريق طويل ، الرحلة صعبة ٠

ما أن تدخل العربة التى تقلنا الى (السلوم) حتى أرتاح ، سيدى برانى ، مرسى مطروح (ننام هناك) ثم نواصل السير ، الضبعة ، العلمين ، الحمام ، برج العرب ٠٠ كنا قد استنفدنا كل ما لدينا من كلام الدنيا ٠

ـ يبدو من لهجتك يا (أسطى) أنك الست اسكندرانيا ٠

ـ أنا من الاسماعيلية ٠

عندها رقص قلبى ، تمنيت لو أخبرنى بذلك من يومين (عمر رحلتنا على الطريق) ، كانت لهفتى تسبقنى حتى أعرف كل الأخبار عن أرض الحب ٠

ـ الست من الاسماعيلية ٠٠٠ (يقول زوجى)

ـ من أى ناحية أنت ؟ (يسأل السائق)

ـ من الزغابة عزبة أبو عطوة ٠ (ينطلق لسانى)

ـ هل تعرفين (فتحى حسنين) ؟ (يسألنى)

ـ ابن عمى ٠٠ هو ٠

(يصرخ قلبى ملهوفا كاد يفضحنى عند زوجى)

ـ زميلى هو فى العمل ٠٠ (واستطرد قبل أن أستفسر) ٠٠ أنا فى أجازة مفتوحة ، سافرت الكويت للعمل ، عدت بهذه العربة ،

أعمل بها على خط (بنغازى ـ اسكندرية) حتى لا يرانى أحد من الاسماعيلية ·

ـ لماذا لم يسافر معك ؟ (يسأله زوجى)

ـ لا يحب مثل تلك الأمور ·· يعشق الأرض هناك ·

ـ يركن دائما الى توتة (خليل) ··· أليس كذلك ؟

ـ يبدو أنك تعرفينه كثيرا ·· (يعقب فى خبث) ·

ـ ألم تقل لك انه ابن عمها (يقول زوجى) ·

العجمى ·· الدخيلة ·· المكس ·· ثم ·· الاسكندرية ·· الزحام ، الشوارع ، الناس لا يعرفون معنى الهجرة ·

الحديث عنك بلع باقى المشوار حتى (الدلنجات) ·· تخيلتك تحت التوتة ·· تبحث عنى فى قلب خليل ·· (هل ما زال اسمى محفورا فى قلبك يا فتحى ؟) ··

ـ أخبرنى زميل فى احدى رسائله لى فى الكويت أنه تزوج (منذ شهور بعيدة) ابنة رئيسنا فى العمل ·· اسمه (عباس الطيب) ·· اسمها (نادية) ·

حمدت الله أن زوجى يجلس الى جواره (كان يجمع الجثث فى الأيام السوداء ·· هكذا أخبرنا) ·· يتجرعون من تلك الزجاجة تحت أقدامهم ·· لا يحسون بالكلمات تحرقنى ·

ـ اسمها (آمال الدمياطى) ·· طلقتها ·· تزوجت بدويا هناك ·· أهدانى العربة ·

أبكى دائما كلما تذكرت نكستى ·· أذكرنى بخير ··
ومبروك يا فتحى ··

أختـك
(زينب شحاتة)

فجأة ملأت ذاكرته رائحة المانجو ، الشمام ، ورائحة حدائق الملاحة فى الشمس ٠٠ (ماذا تخبىء لنا الأيام ؟) ٠

ان الحياة داخل القبو لم تستمر على ما كانت عليه ولكنها تغيرت كثيرا بالنسبة له على الأقل بعد الزواج ٠٠ الأحداث تمر سريعة متلاحقة ٠٠ الأيام تأكل الأيام ٠٠ والمدينة تنتظر ٠

بعد زفافه الى نادية تم نزوح العائلة الكبيرة الى وسط المدينة ، شقة كبيرة (خمس غرف) تحتوى أيامهم القادمة بعيدا عن العيون المتطفلة لشباب هذا الحى ، مودعين الى الأبد لسان هذه المرأة التى تفرش الأرض تبيع الطماطم وأسرار الناس ٠٠

اتفق الرجلان فيما بينهم على تناوب الاقامة بين أفراد العائلة ، فالبيت فى حاجة الى رجل دائما ٠

تم عرض الموضوع على (نوفل بك) ٠٠ على أن يتم نقل (فتحى حسنين) الى الوردية الثانية مع (سعيد الجمال) ٠٠

ـ بل يحل محله ، رئيسا للوردية الثانية ٠

ـ هذا كرم كبير منك يا سيدى ٠٠ قد لا نستحقه ٠

ـ أبدا يا عباس (أفندى) ، تعرفنى دائما لا أجامل ٠٠ فقط أضع الرجل المناسب فى مكانه،ولقد تابعت كثيرا نشاط هذا الشاب ٠٠ تهزنى كلمة الحق عنـده ، وقد زكته جهات أخرى لدى الرئاسة بالمرفق لما يتمتع به من انتماء واحساس قومى وحب للأرض وهذا ما يحتـاجه الوطن فى أيامنا القادمة ، بالاضافـة الى أن قيادة المنطقة سجلت بعض المخالفات على (سعيد الجمال) ٠ وطلبت فى منشور سرى ضرورة ابعاده عن المنطقة ٠

منذ ذلك الحين أخذ (عباس الطيب) على عاتقه مسئولية الذهاب الى البيت الصغير (بأبو عطوة) خلال ورديته ، والقيام بأعمال (فتحى حسنين) كاملة ٠٠ بعد أن لقنه وعلمه كيف يمكن رى الأرض والعناية بتوتة (خليل) ٠٠ فى كثير من الأحيان كان يأخذ الأرنب معه للقيام بهذه الأعمال التى لم يعهدها من قبل ٠٠

لم يبذل (فتحى حسنين) مجهودا كبيرا للوقوف على مهام المسئولية الجديدة الملقاة على عاتقه ، كثيرا ما راقب تلك الأمور فى مقربته من (عباس أفندى) فى الفترة الأخيرة ٠٠

حتى رجال الوردية (الثانية) هم زملاء العمل بالمرفق من سنوات بعيدة ، الوجوه مألوفة ، والحياة صورة مكررة داخل القبو ، لكن الأسماء تختلف تلك المرة ٠

هنا ٠٠ يجلس الرجال حول (سليمان الحلوس) يسرد اليهم نفس روايات (أبو الغيط) فى الوردية (الأولى) حتى تكاد تجزم أنهم يحصـلون على معلوماتهم من نفس المصـدر الواحـد ٠ مع أنهما لم يلتقيا أبدا ولم يعرف أحد منهما الآخر (أمور عجيبة تصاحبنا فى أيام الجفاف) ٠

ـ لقد تقدم بطلب الى المسئولين فى الاسكان والمحافظة للتصريح له بنقل مخلفات بيته الذى أصيب فى عمليات قذف المدينة حتى يمكنه الاستفادة منها فى بناء مسكن آخر جديد فى المهجر البعيد بعد أن اكتظت الأرض هناك بمن لفظتهم المحنة ٠٠ لكنه استغل عربات النقل الخاصة بالمرفق الكبير وقام يملؤها بملحقات بيته من شبابيك ، وأبواب ، سخانات ، حنفيات ، أدوات كهربائية ٠٠ ولم ينس أن ينقل محتويات بعض البيوت الأخرى فى شارعهم ٠٠ قام

أحد الجيران المتضررين من تصرفه بالأبلاغ عنه لدى المسئولين .. تم ضبط الواقعة ، ومخاطبة رئاسة المرفق .

– حــــذار يا سليمان .. لا أحب مثــل تلك الثرثرة فى حضورى .

– (يبدو أننا سنفتقد (سعيد الجمال) كثيرا .. قد كان مرنا يحب الضحك والمزاح .. يحثنا دائما على النبش فى الدماغ بحثا عن أمور تصلح للثرثرة) .

– (صاحبنا يأخذ الأمور بجدية لم نألفها) .

– دعونا نخرج الى المسجد العباسى .. نصلى المغرب .. ثم نجلس الى كلمات الشيخ (مختار) الدافئة ، تطهر صدورنا ... (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا) .

(ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة) .

التدريبات الشاقة القاسية تأخذ مكانها بيننا بعد أن سبقتنا الى رجال القوات المسلحة فى كل شبر على امتداد الجبهة .. فاليهود يربضون على الجانب الآخر لا يفصلهم عنا سوى مائة متر أو أقل عرض القناة ناحية المعدية (نمرة ستة) .. يختبئون تحت الساتر الترابى الكبير .. تحصنهم نقاط قوية .. أبراج مراقبة مجهزة .. أسلاك شائكة .. متاريس حديدية .. مدافع كثيرة .. مكعبــات خرسانية ضــخمة .. دشــم قوية .. ملايين من أكيــاس الرمال الصــغيرة .. قضبان السكة الحديدية المرفوعة من العريش حتى القنطرة .

(وبالرغم من كل ذلك فأنهم يقبعون فى الخندق تحت الساتر

على عمق عشرين مترا أو يزيد) .. هذا ما أخبرنى به جنــدى الاستطلاع المصرى شارحا لى ما رآه خلسة من خلال التلسكوب فى نقطة الاستطلاع المتقدمة بعد أن رجوته كثيرا ..

ـ أريد أن أرى الاسرائيليات وهن يسبحن فى القناة .. لماذا تضحكن ؟ الجميع يقسمون أنهم شاهدهن عاريات .

ـ أقسم لك يا أستاذ لو فعلت احداهن ذلك خلال ورديتى لن أتردد فى وضع القرار بنفسى .. أفتح نيران مدفعى كلها ... والتكن المحاكمة العسكرية بعدها .. لا يهم ..

ـ لا أنام فى غيابك يا (فتحى) .. تقتلنى هواجسى ... أكتم صرختى على صدر أمك .. تنام عن جوارى ..

ـ أتحسين بالخوف يا (نادية) ؟

ـ عرفت كل أنواعه منذ نام سرك فى أحشائى .

ـ وأنا أيضا .. تجتاحنى أنواع كثيرة من الخوف لم تداهمنى من قبل .. منذ عرفت بمقدم الضيف القادم .. يجب أن أنتظره .. ألقنه بعضا من أخبارى وأخبار عمه (خليل) ..

ـ أريدها بنتا .

ـ لا فرق عندى .. أنتظرها معك .

ـ أحبك يا فتحى ..

ـ آلو .. آلو .. مبروك يا (فتحى) .. جاءك (ولد) ..

ـ نسميه (خليل) .. باذن الله .

ـ هكذا سمته أمك .

وأخيرا ٠٠ تمكنت من أن أركن الى جوار تلك النافذة كالعادة فى كل رحلة عودة ، حتى يتسنى لى أن أتصيد نسمة هواء نقية ، تمسح عن صدرى ما يحويه فى جنباته ، وتقتل فى نفسى ذلك الاحساس الغريب الذى يداهمنى كلما غادرت أولادى فى طريقى الى وردية جديدة ٠٠

أطل من النافذة ، أودع فلذة كبدى ٠٠ تخرج فى صحبتى كل مرة الى موقف الاتوبيس بأبو خليل ٠

- مع السلامة يا نصر ٠٠

- مع السلامة يا بابا ٠٠ سوف أعود بعد الظهر ٠٠ أنتظر عودة الأستاذ فتحى ٠

- لا تخبره بما حدثتنى صباح اليوم ٠

- اطمئن يا (بابا) ٠٠ لقد كبرت ٠

أركن رأسى للمقعد الخلفى ٠٠ أرقب الحركة خارج الأتوبيس ، أريد أن أذوب فى أى شىء أنسى محنتنا الكبرى وهمومى جميعا ٠٠ أيام الأجازة تنتهى سريعا ٠٠ وأيامنا داخل القبو لا تنتهى ٠

- كان ذلك الشاب يطارد أختى (أنصاف) كل يوم وهى فى طريق عودتها من المدرسة ٠٠ اشتكت للأستاذ (فتحى) ٠٠ تربص له ٠٠ ضربه ضربا مبرحا ٠٠ سلمه للشرطة ٠٠ لم يعد يظهر أبدا ٠٠ ألم يخبرك بهذه الواقعة ؟ ٠

ـ أبدا .. (فتحى) رجل كبير .. لا تخبره بما حدثتنى .
وأحمـــــد الله فى نفسى أن فى البيـت رجـــل .. وأن
(أبو الغيط) لا يعرف أمورنا الصغيرة البعيدة عن مجلس القبو ..
الجميع يصرخون داخل الأتوبيس .. (ربنـا يرجـعكم لبلادكم
بالسلامة .. حاجة للعاجز (المسكين) .. وأحبس أنفاسى (معايا
مشط عظم .. اوعى تنسى حماتك) .. وأكظم غيظى (اسأل عنى
فى كل مكان .. عندك صداع .. روماتيزم .. سل .. طاعون ..
لمسة واحدة من هذه الزجاجة تزيح كل شىء .. وبكام يا محترم ..
شلن واحد .. مين يقول هات، يا دكتور بنهـاوى .. أنا دكتور
الفقير بس) .

.. ويضج جميع الركاب بالضحك ..

وتخترق صفارة طويلة من (الكمسارى) كل هذا الضجيج..
ايذانا ببدء تحرك الأتوبيس .. ويقفز مرتزقة الموقف جميعا الى
أتوبيس آخر .. لم يغادر المحطة بعد .

أمرأة عجوز تودع الذى خلفى (تبقى تطـل على البيت يا
محمود ، وتسقى الزرع أحسن يموت) .. الأتوبيس يتحرك ..
(مع السلامة يا محمود ، سلم على الاسماعيلية واللى فيها) .

ـ مع السلامة يا (نصر) .

ـ مع السلامة يا (بابا) .

وتتضاءل أصوات منادى الموقف . والأتوبيس الذى نقـله
لا يسمع لهم .. السويس .. المحلة .. اسماعيلية .. اسماعيلية
.. أتحسس جيب البنطلون .. أخرج استمارة السفر .. البطاقة
.. تصريح دخول المدينة .. تزلزلنى تلك الكلمة التى يقذف بهـا

الكمسارى جميع الركاب ·· (ربنا يخلى الشئون اللى خليتكم تركبوا درجة أولى ·· تذاكر ·· ورق) ··

الأيام طالت أكثر مما قدرنا لها منذ هاجرنا من الأرض ·· (تذاكر ·· ورق) ·· هذا الكمسارى أحسده كثيرا لأنه يعود الى بيته كل يوم ونحن لم نعد بعد ·

البساط الأخضر الجميل يفرش الأرض على جانبى الطريق الذى نقطعه ، والشبح الأسود جاثم هناك فوق أنفاس المدينة ··

وحدنا يلفنا الصمت ·· تحتوينا أطلال ذكريات جميلة ·· كل يتغنى بأحزانه ·

(ماذا يفعل الأولاد فى غياب الرجـال ؟ ·· لهم الله) ··· (أنا حطيت الغيار فى الشنطة وجهزت لك فرخة وحتـــة لحمة ·· عشان تفتكرنا بحاجة حلوة من البلد وانت راجع) ·· (أخى لم يحتمل ·· أجازة مفتوحة ·· بعدها ·· ليبيا) ·· (الفـــلوس كثير ·· لا حرب هنا ·· تعالى معى) ·

– نحسدك هذه المرة ياسى عباس

– لماذا يا (تفيده) ؟ ·

– ستقضى (شم النسيم) فى الاسماعيلية ·· الناس هنـا لا يعرفون أيامنا هناك ·· لكن المهرجين سيحرقون (اللنبى) – بالرغم منهم ·

ويقف الأتوبيس فجأة ·· فيوقظ السابحين فى هواجسهم ·· وأطل برأسى من النافذة ·· أتطلع الأمر ·· تصطدم عيناى بتلك اللافتة الحمراء (العباسة) ·· قف للتفتيش ··

يقفز رجال الشرطة العسكرية ·· يتبعهم رجال الأمن ··

ـ كل يخرج تصريح دخول المنطقة ٠٠ وبطاقته الشخصية ٠

التل الكبير (هنا طعن عرابى) ٠٠ القصاصين ٠٠ أبو صوير ٠٠ نفيشــة ٠٠ (قف للتفتيش) مرة أخرى ٠٠ ثم حول مدخل المدينة خليط من الأشياء المحترقة ، الدعائم الخشبية المتفحمة ، أكوام من الأحجار والأنقاض وبقايا مبان ٠

ـ لماذا هذا السـاتر الترابى الكبير بأمتـداد الجانب الآخـر للترعة ؟

ـ تتدرب بعض القوات على العبور ٠٠ ألم يتم تدريبكم ؟؟ ٠

لم يصلنى بقية ثرثرة بعض الجنود خلف ظهرى ٠٠ فقد وصل الأتوبيس الأسماعيلية ٠

ـ انتظرتك حتى أطلعك على حقيقة الوضع وهذا تقرير يضم ماتم خلال ورديتى ٠٠٠ ما أخبار العائلة ٠٠ خليل ٠٠ نادية ٠٠ أمى ٠٠ الجماعة ؟

ـ جميعهم بخير ٠٠ (نصر) ينتظرك فى موقف أبو خليل ٠

ـ كنت أتمنى أن أقضى شم النسيم معكم هنا ٠٠ لكنك تعرف ظروفى سأصحب أمى وخليل الصغير الى طبيب المرفق فى القاهرة ٠٠ أوصيك خيرا بتوتة (خليل) ٠٠ يمكنـك أن تقضى يومـك تحتها ٠٠ كنت وأمى نفعل ذلك ٠٠

يتحرك الرجال فى خفـة بالغـة حول مجلس (أبو الغيط) داخل القبو على غير العادة فكثيرا ما كان اليوم الأول لأستلام العمل بالوردية ثقيلا كابوسيا على صدورهم جميعا ، لكنه يأتى تلك المرة مقترنا بليلة (اللنبى) ٠

– رائحة الفسيخ ·· السردين ·· الملوحة ·· البصل الأخضر تخنقنا يا أبا الغيط ·

– لاتنزعج كثيرا ياعباس أفندى ·· صباح الغد ينتهى الامر ·· لقد أحضر كل رجل المطلوب معه من أجل الوليمة الجماعية ·· تذكرنا بأيامنا الخضراء (ثم يستطرد) ·

فى مثل هذه الليلة كنت أصحب عائلتى الى مقام الشيخ (حنيدق) ·· نسهر هناك حتى الصباح ·· ثم نعود نفترش حدائق الملاحة بقية اليوم ·

– هل يعتبر الشيخ حنيدق شهيدا ؟ (يسأل الأرنب فى غباء)

– طبعا ·· ألم يتناثر مقامه فى قذف اليهود · (يرد أبو الغيط) :

– ما برنامجكم الليلة ؟ ·· (يسأل عباس أفندى حتى يحسم الثرثرة الغبية) ·

– نأكل كثيرا ونحتسى الشاى ·· ثم نخرج الى الضمة أمام محل (هاشم) فى شارع مصر ··

وأخيرا ·· تم استكمال تمثال (الصامدين) من شظايا قذائف العدو على أبرياء المدينة ·· كل قطعة فى هذا الجسد المنتصب تحمل وثيقة ادانة لا تنتهى ·· وبالرغم من كل ذلك فالصدر عريض ، والطول فوق المعتاد ، الحجم الكبير ، اليد اليمنى ممتدة الى أعلى ·· الأصابع مشدودة ·· تحصر علامة النصر بين السبابة ·· بينما اليد اليسرى تتشبث بالرشاش المتدلى من أعلى الكتف والساق اليمنى المرفوعة تهرس تحتها بعض نجمات (داود) المرسومة على أطراف الطائرات التى تم اسقاطها فى الجانب الغربى ··

تكدس أبناء المدينة جميعهم أمام محـــل (هاشم) بشارع مصر ·· تركوا النتوءات والحنايا التى يقبعون فيها (هـــذا يوم اللينبى ··) ·· يشطرون الظلام ·· يحرسهم من الجنبات زملاؤهم فى الدفاع الشعبى ·· يلتفون حول تمثال (الصامدين) الشامخ فى شكل دائرى واسع ، فى المنتصف ترقد دمى كثيرة ·· لكل من تكرهه الصدور ·· هذه دمية لجنـــدى يهودى يحمـــل نجمة داود السداسية فوق ظهره ·· دمية أخرى لوجه أصلع ذا عين واحـــدة وتغطى الأخرى عصبة ســوداء ·· كتب تحتهـــا (ديان ·· ابن الكلب) ··

دمية أخرى لعجوز شمطاء ، ذات شعر غجرى وعيون شريرة كتب تحتها (جولدا ·· وكلمات بذيئة) ·· دمى كثيرة لملوك الدم ذوى النجوم السداسية ··

ـ ما معنى اللينبى ؟ (يسأل أحد الجنـــود الذين شـــدهم الجمع) ·

ـ تلك الدمية التى أمامك ترمز لـــكل شىء نكرهه ·· كما كرهنا (اللنبى) من قبل ·· فنخرج الى اشعال النار فيها والخلاص منها فى مثل تلك الليلة من كل عام ··

ـ لكنى لم أعرف بعد من هذا (اللنبى) الذى تحمـــلون له كل هذا الكره ؟

ـ كان هذا الجنرال من أشهر قواد الحرب العالمية الأولى ·· انتصر على الأتراك واستولى على فلســـطين (ليته قتل قلبها) ·· لذا قام الاستعمار البريطانى باستدعائه الى مصر لاخمـــاد الثورة الشعبية سنة ١٩١٩م وقتل الحركة الوطنية ·· فلم يدخر الى ذلك سبيلا ··

(اليوم يومك يا اللنبى

اليوم يومك يا اللنبى) ..

تصرخ فرقة (الصامدين) تحت أوتار السمسمية .. فيهلل ، ويرقص معها أبناء المدينة حول دائرة النار المزروعة .. تحيط بالدمى جميعا .. فى انتظار لحظة الخلاص منها ..

- ١١ -

– آلو .. عباس أفندى .. ماتت أمى ..

– لها الرحمة .. ولك الصبر يا ولدى .

– تعرف وصيتها .

– أحفظها .. سأرتب الأمور جميعا .. اهتم بنفسك

ما أن سقطت سماعة التليفون من (عباس الطيب) حتى التف حوله رجاء (القبو) ، يشدون على يده بكلمات العزاء ، يقرأون الأخبار فى ملامح الوجه ، يوزعون الأدوار قبل أن تعى العقول الحزينة ما حولها .

(أحمد عبد الحميد ..) .. يرافق عربة الاسعاف التى ستحضر الجثمان وفى طريقه للزقازيق يمر بمبنى المحافظة المؤقت (بالتل الكبير) لأخذ تصريح دخول الجثمان وبعض المشيعين .. (ستة رجال ، خمس نساء لا أكثر) .

(سعد عبد المعبود ..) يذهب الى المدافن فى أطراف المدينة يفتح مقبرة (حسنين) بعد أن يأخذ معه عم (حامد) من العزبة ، ليرشده الى موقعها (لا تنس أن تأخذ معك شكارتين أسمنت) .

(أبو الغيط ..) يطوف بأرجاء المدينة والمكتب التنفيذى

ومقر قيادة وتدريب فرق الدفاع الشعبى ، يبلغهم بحالة الوفاة ٠٠ (حتى يخرجوا لمواساة زميلهم) ٠

(الأرنب ٠٠) ٠٠ تجهيز وتنظيف دار (فتحى حسنين) فى المدينة حتى تستقبل بعض المعزين والوافدين من خارج المدينة ٠

(أبو الغيط ٠٠) ٠٠ يعلن أن صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر من المسجد العباسى (والدوام لله) ٠

(بعض الرجال ٠٠) ٠٠ يخرجون الى نقطة التفتيش (بالعباسة) يستقبلون عربة الاسعاف والمشيعين (ويسهلون الأمور) ٠

(آخرون ٠٠) ٠٠ ينتظرون عند نقطة تفتيش نفيشة) يصحبون الموكب الى العزبة ، يطوف فى الوداع الأخير ، ثم بعدها يتجه الى المسجد العباسى ٠

الموكب الجنائزى تتقدمه عربة الاسعاف ، تحمل الجثمان ، يجلس (فتحى حسنين) الى جواره ، يقبل أطرافه بين الحين والآخر ، تتبعهم ثلاث عربات أجرة ، تضج احداها بالعويل والنواح ، تحمل النساء ٠٠ (تفيدة) ٠٠ (نادية) نضم صغيرها الى صدرها ، تحجبه عن الصرخات المفزعة ، بعض من نساء الاسماعيلية من المهجرين بالزقازيق ٠٠

تعبر العربات جميعا من بوابة (نفيشة) ، يقف رجال التفتيش فى خشوع ، لا يقتربون من الموكب (للأموات حرمة) ٠ ما أن تصطدم عيون النساء باللافتة الكبرى الحزينة تحمل اسم العشق (الاسماعيلية) حتى ينطلقن فى الصراخ واللطم ، فيبكى الرجال معهم مصرع الأيام الجميلة على أرض الحب ٠٠ حتى خضرة الزرع والأشجار على جانبى الطريق قد كساها شحوب غريب ٠٠ (الزرع أيضا يحس بالجفاف) ٠

يعبر الموكب كوبرى الجلاء فى طريقه الى (العزبة) بأبو عطوة تصطدم العيون مرة أخرى بأطلال مصنع (الترانزستور) وعلى الجانب الآخر للترعة أنقاض وحطام شركة قنالكترون) ·· يولولن من جديد والرجال يحجبون الدموع تلك المرة ·

تقف سيارة الاسعاف وباقى سيارات الموكب بجوار الدار ، ينزل الرجال يركنون الى الفرش تحت شجرة (خليل) ، بينما النساء داخل الدار ، تتطلع (نادية) الى الأركان المتصدعة حولها بعد أن غمزتها أمها خلسة ، هذا المكان قطعة من جسد زوجها (مكافح أنت يا فتحى ·· كم أحبك) تضم صغيرها اليها تقبله ·

- ماذا وراء الرجال يثرثرون كثيرا قبل التلاوة ؟

- أنت مرة أخرى يا (أبو الغيط) ·· هل هذا وقت مناسب ؟

- فقط ·· أخبرهم أن هناك عزاء آخر فى المدينة ·

- من تعنى ؟

- الحاج (عبد الكريم) أستشهد صباح اليوم ·

- كيف حدث ذلك ؟

- خرج فى صحبة اللجنة التى شكلت خصيصا من الأدارة الهندسية بمجلس المدينة لبحث أسباب شكواه الكثيرة التى أزعجت السلطات بالجبهة لحصر الأضرار التى لحقت بأرضه ، كان يمسك أطراف الشريط بينما المهندس على الطرف الآخر ، وباقى أعضاء اللجنة حولهم يحصرون ويدونون ، فجأة تمت أعمال الاشتباك مع العدو ، وتبودل القذف من الجانبين ، انطرح الجميع أرضا ، قاموا جميعا بعد نهاية الغارة ، بينما راح هو الى أرضه والشريط فى يده ، أصابته احدى الظايا فى رأسه ، يرددون أن أقوى مدفعيتنا العسكرية تقع فى أرضه ·· تحمينا جميعا ·

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠

ـ (وما تشاءون الا أن يشاء الله) ٠

اصطدمت عينا (فتحى) وهو يتلقى العزاء بصورة (خليل) معلقة فى مكانها من الشجرة الى جوارها صـــورة (الأم) ٠٠ من فعلها ؟ ٠٠٠ (الأرنب) صباح اليوم ٠

ـ (كل نفس ذائقة الموت) ٠٠ اقرأ يا مولانا ٠٠ الرجال ينتظرون عند المسجد العباسى ٠

(صلاة الجنازة ٠٠ أربع تكبيرات ٠٠ الله اكبر ٠٠)

حتى المدافن ، لم تنج من عمليات القذف ، تبعثرت شـــواهد القبور ، اقتلعت شجيرات الصـــــبار التى تتوج الموتى ، تناثرت الأعشاب الشيطانية تلتف بأكوام العظام والجماجم ، تحتها ســقطت اللافتات الرخامية التى تحمل الهوية والتاريخ ، وأغانى الوداع ٠ (أدخلوها بسلام آمنين) .. (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) ٠

يهرسون تحت أرجلهم بعض النعوش المتآكلة والزهور الذابلة ٠٠ يجمعون العظام المتناثرة حولهم فى بعثرة القبور ، يضمونها الى حفرة جديدة ٠٠

يلمحون بعض الكلاب المفترسة تحيط بهم ، تعتلى أســـوار المقابر تحسبا لوليمتها الجديدة ، ينطلقون فى أثرها ، يقذفونها بكل ما ملكت أيديهم من حجارة ، أخشاب ، نفايات ٠

يتلقف الرجال الجثمان من العربة الى حيث مرقده الأخير ،

يحجبون النساء عن مشهد الوداع الجنائزى ، ينهار (فتحى حسنين) ، يضمه (عباس أفندى) الى صدره ٠٠ (كل من عليها فان) ٠

ـ أسرع يا مولانا قبل الغارة ٠

صرخة قوية ، تصـدع القبور جميعا ، تتبعهـا صرخات ، مصدرها الجانب البعيد ، ناحية المقبرة الجماعية ، التف حولها معظم الوجوه الشاحبة فى الموكب الحزين ، يحنون رءوسـهم ، يوارون دموعهم ، يبحثون عن رفات أقاربهم ، سقط أحدهم فجأة بجـوار احدى المقابر وانخرط فى البكاء (سحقتنى الأيام يا أبى فى الغربة والترحال ٠٠ هل تسمعنى ؟) ٠

سار الباقون حوله صامتين ٠

ما أن وارى الرجال الجثمان وانتهوا من طقوس العزاء المعهودة حتى خرجوا الى الباب الرئيسى للمدافن ، يجلسون حول أركانه . ينتظرون مقدم نعش الحاج عبد الكريم ٠

ـ يمكنك أن تنصرف يا أستاذ (فتحى) ، يكفيك مصابك ، سنبلغ عزاءك لذويه ٠

يتفقد الغرفة وحيدا ، يقلب طيات الورقة فى يده ، تحمـل الكثير من الأمور العاجلة الهامة ، يتلفت حوله ، الفراغ يملأ كل الدنيا ، الكون قبو كبير ، مازالت الغرفة تحمل عبق أنفاس الأم ، الأب ، دم (خليل) ٠٠ ينفجر باكيا ٠٠ (أمى ٠٠ أفتقدك) ٠٠٠

تصطدم عيناه من خلف الباب نصف المفتوح بالنساء يجلسن تحت توتة (خليل) ، ينتظرن العربات لنقلهن مرة أخرى الى بلاد

المهجر ، يحلمن كثيرا بالعودة للأبد ، كم صارحن الرجال برغبتهن فى البقاء خلسة فى أرض الأيام الخضراء ٠٠ (لا نستطيع ٠٠ التعليمات صريحة ٠٠ لا نساء فى الجبهة) ٠٠

يهرع (عباس أفندى) الى استقبال بعض المعزين فى المكان الذى جهز لذلك أمام احدى الدور الكبيرة فى العزبة الخاوية بعيدا عن مجلس النساء تحت التوتة ٠

ـ شكر الله سعيك يا سعادة البيه ٠٠ شكر الله سعيك يا سيادة العميد ٠٠ شكر الله سعيكم جميعا ٠

(ثم يسرع الى (فتحى حسنين) يخرجه من الأحزان الكاملة فى الغرفة) ٠

ـ (نوفل) بك ، العميد (صبرى) ، رجاء رجال كثيرون من أجل العزاء ٠

ـ بل لسرعة نهو طقوسه ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ قد تتم اليوم احدى العمليات المحددة ضد العدو ٠

ـ من أين لك هذه المعلومات ؟ ٠٠أعيش فى المنطقة ٠٠ أتنفس الهواء معهم ٠٠٠ أتدرب مثلهم ٠٠ آكل ما يأكلون ٠٠ لكنى لم أسمع عن شيء من هذا القبيل ٠

ـ لقد تحروا الصمت والكتمان تلك المرة حتى لا يفشى أمرهم عند (أبو الغيط) وأمثاله ٠

ـ والآن صرت أجد تفسيرا لبعض الأمور التى حدثت متتالية صباح اليوم ٠

– أعرف أنه صدرت الأوامر الفورية بترحيل بعض الأشخاص غير المرغوب فى تواجدهم بالمنطقة فى الفترة القادمة ٠٠(أبو الغيط) ٠٠ (أم السيد) ٠٠ (عبد الراضى) ٠٠ وغيرهم ٠٠

– (عبد الراضى) أيضا ٠٠ و (أم السيد) ٠٠ حسبت (أبو الغيط) فقط ٠٠ تعرف وتكتم الكثير فى حنايا أحزانك ٠

– فقط أردت أن أطلعك بجانب من الأمور حولك ، لقد جاءوا جميعا لاستعجال ترحيل النساء ، عليك بها يا عمى ، وضم (خليل) الصغير الى صدرك دائما ٠٠ لقنه الكثير عن عمه) ٠

– ماذا وراءك ؟ لم أعد أفهمك ٠

– تلقيت منشورا سريا أثناء العزاء عند المسجد العباسى (هام جدا وعاجل) يكلفنى ببعض المهام ٠٠ لا أستطيع أن أفصح بها اليك الآن ٠٠ أولادى أمانة فى عنقك ٠

– أمامك أصبح كائنا خاويا ٠٠ لا رأس لى ولا عقل ٠

– سوف تعرف فى حينه ، دعنى أخرج لهم الآن ، وأذهب لترتيب خروجهن ٠

– لو كان أمر خروج النساء بهذه الأهمية ٠٠ فلماذا كان التصريح بدخولهن فى البدء ؟ ٠

– للتمويه فقط ٠٠ حتى تبدو كل الأمور عادية ٠

– قلت : أمام ألغازك ٠٠ لا رأس لى ولا عقل ٠

يشد على يده ٠٠ ثم ينطلق فى طريقه الى حيث ينتظره الرجال ، يمر من أمام شجرة (خليل) ٠٠ القلب مازال محفورا ٠٠ يلقى التحية على النساء تحتها ٠٠ تصطدم عيناه بعينيها ٠٠ (أحبك يا نادية ٠٠ لم يعد لى سواك وخليل الصغير) ٠٠ يلمحها ٠٠ تضمه الى صدرها ٠٠ تخرج ثديها تلقمه ٠٠ تبتسم له ٠٠ يبتسم ٠

هذه الرواية

بقلم : محمد محمود عبدالرازق

علمتنا بسطة الأرض ، وجريان النهر ، معنى الحياة · ومعنى الحياة أن نشيد لا أن ندمر · أن نحيي لا أن نقتل · أن نقيم دعائم الحضارات لا أن نقوض أركانها · لكنها كتبت علينا : الحرب · وكما علمنا النهر معنى الحياة ، علمنا الفيضان معنى المقاومة من أجل الحياة · وجاء في تقرير سكوت مونكريبف عن فيضان ١٨٨٧ : « انتشر خبر كسر الجسر بسرعة في القرية · اندفع القرويون الى الجسور بأولادهم وماشيتهم وكل شيء يملكونه · كان الاضطراب لا يوصف · ثمة جسر ضيق جدا كان يغطي تماما بالأطفال والجاموس والدجاج وأثاث البيوت · تجمعت النساء حول أضرحة الأولياء المحليين وهن يلطمن صدورهن ويقبلن الضريح ويصرخن صرخات مدوية » ·

تلك هي صورة المجماوات والجماد والضعفاء أمام الخطر الدائم : هلع ورعب وتضرع · أما صورة الرجال : « لم يكن الفلاحون في اضطراب أو هرج على الاطلاق ، وانما راحوا بطريقة متزنة عملية يعملون على جبر الكسر ، فسدوه في نصف ساعة · أن لدى الفلاحين اذا تركوا وشأنهم ، فكرة طيبة جدا عما يمكن عمله · لكن حين يكون واحد من موظفي الحكومة الجهلة حاضرا فقد ضاع كل شيء » ·

وقد تكاثر علينـا هواة التدمير ولعقـة الدماء من كل جانب فقاومنا • وانتصرنا عندما تركنا وشأننا ، ولم يكن « واحد من موظفى الحكومة الجهلة حاضرا » • وحتى عندما هزمنا •• استطاعت قوى الحب الكامنة فينا ، أن تلين قناة المستعمرين والطغاة حتى ذابوا فى كياننا ، مهما كان أثرهم •• بصماتهم على أرضـنا • وهكذا انصهرت فى البوتقة المصرية الأصيلة أمم شتى ، وأصبحت مصر — بحق — نواة الدولة العالمية التى يتطلع اليها المتشوفون الى وحدة العالم •

لكن لعبـة الحرب لا تنهى • والمواجهة مازالت مسـتمرة • والأدب — مرآة كل أمة — ليست غايته التسجيل ، وانما التطهير • بيد أنه يتجذر فى الواقع ويثمر على أرضه • ومن ثم فهو يقوم — مهما قيل — بعملية تسجيل ، بالضرورة ، وهو فى طريقه الى التطهير • واذا كان التطهير يجدد قوانا ويسمو بأرواحنا ، فأن التسجيل يحفظ وثائقنا للأجيال القادمة كى لا نموت بلا شاهد •

وقد ظلت العناكب المفترسة — كما قلنا ذات يوم — تسيطر على مقدراتنا حتى أردتنا فى غياهب الهزيمة • ثم حاولت — كعادتها دائما — أن تطوقنا بخيامها المدنسة لتتاجر بالهزيمة وتتكسب من ورائها • وذلك بعد أن كانت قد تمكنت من وأد الكلمة الشريفة ، واحتكار الوطنية ، بقدرة فاجرة على الادعاء ، حتى تحولت فى أيديها الى عجرفة بهلوانية ، ومظهر فتونة جاهلة لم تنطـل على أحد ، وان وقعت — هى نفسها — صريعة تصديقها فى النهاية • وقد ظل الفنان الذى طالما طارد العناكب مطاردا من العناكب ، حتى وجد نفسه فى ركن قصى مظلم ذى جدارين ، كان عليه أن يريح ظهره المقصوم الى أحدهما : جدار لبناته التمزق ، وجدار لبناته اللامبالاة • واذا كان العمل الفنى — كقاعدة أساسية — لا يتم الا

بالمتلقى ، فقد لزم الفنان بين جدارية الصمت • بيد أن هناك ••
فى ذلك الركن القصى المظلم ، من استطاع •• رغم جراحه ••
ورغم تصــدع العــلاقات التى تربطه بوســطه الطبيعى وبيئته
الاجتماعية ـ أن يدون وثائقه ، ايمانا منه بضرورة أن يقوم بدوره ••
أن يكون شاهد عصره • فامتلأت أدراج المكاتب بتلال الأوراق
المحبرة ، الواثقة بقدرة الشعوب على دحر أعدائها ، مهما طالت
الآماد • أما من استطاع أن يخرج نتاجه الى النــور ، فلم ينطق
بالصدق ، كل الصدق • وانما لجأ ـ فى أحسن الظروف ـ الى نوع
من الموازنة التى أضرت بقضيته ، وأحالته ـ من حيث لا يدرى ـ
الى بوق من أبواق النخاسة •

وبين الفنان الصــامت •• والمخاطب نفســه •• وصاحب
الموازنات الضارة ، ضاع الأدب المصرى •

كنا بحاجة الى نصيب من الحرية •• ونصيب من النصر •
الحرية لتمزق قيود الخــوف •• والنصر ليرفع هامات المهزومين ،
فتتطلع ـ مجددا ـ الى الأمام ، وهى تجتر مرارة الماضى ، لتصنع
رحيق المستقبل • وقد حققت السبعينات والثمانينات ما لم تتمكن
الستينات من تحقيقه ، وشــارك فى هذا الانجاز نفر من جيــل
الستينات • لا ننكر أن هذا العقد الأثير قد ترك نصوصا متناثرة
صادقة ، لكنها لم ترتفع بحال ـ ان صح التعبير ـ الى مســتوى
النكبة • فالمرء لا يستطيع أن يقفز فوق ظله • وقد شكل القهر ،
وشكلت الهزيمة ، ملامح هذا العقد • ورواية : « القبو » وهى بنت
الثمانينات بحــق • بنت النصيب من الحرية •• والنصيب من
النصر ، الذى استطعنا انتزاعهمــا من براثن الهزيمة والقهر •
وتذكرنا هذه الرواية بانجازات محمد الراوى فى السبعينات :
مجموعته القصصية : « الركض تحت الشمس » (١٩٧٣) وروايته

القصيرة : « عبر الليل نحو النهار » (١٩٧٥) واذا كانت هذه الانجازات وليدة مدينة السويس ابان حرب الاستنزاف ، فان « القبو » وليدة مدينة الاسماعيلية فى نفس الفترة ٠ محمد الراوى ومحمد عبد الله عيسى ، رفيقا حريق ، ورفيقا طريق ٠ ولقد عاشا مدينتيهما — كما تكشف عن ذلك أعمالهما — بعمق ومشاركة وجدانية ، جعلتنا نقول : ان « المكان ينفرد بالبطولة » فى « الركض ٠٠ » وتجعلنا لا نبعد عن هذا القول عند حديثنا عن « القبو » ٠

● ● ●

القصه لم تبدأ — كما قد توحى المعانى التى تلتقط من على عتبات الادراك — عقيب الهزيمة المنكرة مباشرة ، لتستمر مع استمرار الأيام المريرة التى اصطلح رجال السياسة والحرب على تسميتها بحرب « الاستنزاف » ٠ القصة تضرب فى أعماق التاريخ الحديث لتصل الى الجروح المتقيحة التى تفجرت منها نافورات الدم والصديد ٠ فهى تشير فى الفصل الأول الى حى من أحياء المدينة يرجع عمره الى « زمن السخرة الأخرس » ٠٠ زمن حفر القناة : « كان يضم فى حناياه التائهين تحت الشمس ، الوافدين من النجوع البعيدة ٠٠ قبلى ٠٠ وبحرى » ٠ فى هذا الزمن كان الميلاد الحقيقى لمدينة الاسماعيلية ٠ وقد جر هذا الميلاد وراءه الويلات على بر مصر ٠ ثمة ثلاثة نصوص تشير الى هزيمة « التل الكبير » ٠ يخرج النص الأول من ذهن أمين مسعود فى بداية الفصل الأول ، أبخرة تتصاعد ثم سرعان ما تتكاثف لتتقاطر على أرض الواقع مرارة وحسرة : « شاهرا سيفه فوق نصبه التذكارى يقف عرابى يحرس الميدان ٠ عيناه فى كل الاتجاهات ٠ لا تغفل أبدا ٠ وحده يعرف أن الحملة قادمة ٠ لن يربض لهم عند «التل» تلك المرة ٠٠ » ٠

عرابى هنا هو العراف والحارس . وعرافونا ليسوا — كالعرافين القرامى — من هواة الدجل أو محترفى السحر . عرافونا هم الأبطال المكسورين على مر التاريخ ، الذين ذاقوا مرارة الانهزام بالخديعة والغدر والخيانة . لم يهزموا ، وانما طعنوا من الخلف وغدر بهم . من أجل هذا ظلوا أحياء فى وجداننا ، نتطلع اليهم كما نتطلع الى أضرحة الأولياء ، كلما ألم بناخطب ، نستمد منهم العون والقوة : « انزل الينا يا رجل ، شمر ساعديك ، ارفع معنا الأشلاء الصغيرة المطموسة الملامح فى طيات الكتب الممزقة ، والسطور ممزوجة بالدماء .. » . أمين مسعود لا يجد من يساعده فى دفع الجثث بعد القصف المروع ، سوى التمثال وقد عز الرجال . ومن خلال مناجاته نقف على جريمة من الجرائم البشعة ، التى ربما لم يعلم بها الكثيرون — مثلما علموا بمذبحة مدرسة بحر البقر — وسط ركام الجرائم المتلاحقة . وها هو محمد عبد الله عيسى يحفرها فى ذاكرتنا الجمعية . عاد الأطفال من المهاجر ليتسلموا كتبهم استعدادا للعام الدراسى فى معسكرات الايواء .. « الصغار فى طريقهم الى ذويهم ، يهللون ، يرقصون ، يصرخون ، يتناثرون فى أشلاء القطار وقذائف الغدر الموقوتة ، المحطة الصرعى تبلع الكارثة فى أحشائها ، يقفز الأبناء فى جوف الحمم النارية ، يتلقفون بقاياهم ، الجثث المصفوفة داخل مسجد المحطة . ارفع معنا الى عربات الاسعاف .. دعك من ذراعك يا رجل ، ما عساك أن تفعل به .. فلتسقط الآن كل الأشياء المبتورة .. » .

اعتاد الكتاب أن يسموا المخلوقات التى تسكن القصص ابطالا . ومنذ أن افتتحنا عصر الواقعية ، غدت هذه التسمية خاطئة . لقد تحولنا عن البطل الى الانسان العادى ، لكنك مع هؤلاء المواطنين العاديين الذين يحاولون اعادة التوازن الى ما اختل بالجرم الضخم الذى ارتكبه الأثمة فى حق البشرية . لا تملك الا أن تنعتهم

بالبطولة ، رغم ما فيهم من ضعف قد يصل الى حد الخور . بل من أجل ما فيهم من ضعف . وهى بطولة حقيقية ، لأنها لا تجد فى الحب والشرف والتضحية ، مجرد كلمات . بل حقائق . بطولة حقيقية ، لأنها تخرج من بين الجوع والخوف والدم والأشلاء .

أمين مسعود ، أدمن الخمر عن طريـق ما كانت تقذف به « السفن الكبيرة » من « زجاجات ثمينة » . هواه عصر النصوص حتى آخر قطرة ، قد يقفون من هذا النص الخاطف ، على ما استجلب من أدواء بعد حفر القناة ، أثرت حتى فى الساعين البسطاء وراء لخمة العيش . فالقناة لم تجذب أطماع المستعمرين وحدهم ، وانما جذبت أمراض شذاذ الآفاق ، وعادات وتقاليد لم تكن معروفة لنا من قبل . والى الحد مرقد يرجعون التقلبات المتناقصـــة التى مرت بها شخصية أمين مسعود .. « فليكن الكحول فى أيام النار والدم ». الكحول لن يدمره ــ كما يقولون ــ « بل تدمرنى الحقيقة » .. حقيقة انحدار فلول الحق أمام جحافل الباطل .

أصيب اللنش الذى كان يقوده اصابة مباشرة فى ساعات الحرب الأولى ، فانضم الى تشكيلات المقاومة الشعبية ، وعين رئيسا لجماعة جمع الجثث فى القطاع الأوسط . يتشبث بالكوريك فى يده ، يرفع بقايا الأشلاء المبعثرة ، يجمعها ، يكدسها ، فى كومات فوق الرصيف . يجلس بجوارها ، يحرسها من المخالب ، الأنياب الجائعة . يملأ العربة قبل أن تتفجر رائحة الموت . تنطلق العربة تحت الوهج الأزرق المخنوق ، تحملهم الى الحفر الكبيرة العميقة فى مدافن الشهداء . يضغط السائق الزر أمامه يرفع قلاب العربة يفرغ حمولة الطين والدم .

المجموعة التى حملت أعباء هذه الرواية لا تدعى البطولة ، بل تخلقها ، وسط ظروف ضاغطة ومثبطة ، تركت آثارا بغيضة

ومحزنة فى المدينة وفى المهاجر · وليست هذه هى الهجرة الأولى الى المجهول فى تاريخنا الحديث ، ســـواء الى داخل البلاد أو الى خارجها · وسواء أتمت بصورة فردية أو جماعية ، وسواء أجاءت هروبا من قهر سلطوى أو قهرا سلطويا · ولقد تمت أبشع صورها أثناء حفر القناة · ويشير الكاتب الى هجرة منطقة القناة أثناء الحرب العالمية الثانية : « الى الزقازيق مرة أخرى حيث هاجرت صغيرا بصحبة أبى أثناء الحرب العالمية الثانية » كما يشير الى بدايات الهجرة الى مناطق النفط · يقول المثقف الثورى فتحى حسنين : « ذبحتنا النكسة ، ذبحك أبوك ، ذبحنى خطابك ، تمنيت لو تمزق فى اشلائنا اليومية ·· لم يصلنى ·· (تزوجت ليبيا يقينا شر العوز والحاجة ·· هل تريد عقدا يا فتحى ؟) بكيت كثيرا تلك الليلة تحت شجرة خليل بعد أن خلعت اسمك من قلبينا ·· » ·

واذا كانت زينب قد باعت الحب من أجل لقمة العيش لها ولذويها ، ثم عاشت نادمة ، فان آمال الدمياطى قد باعت الدنيا كلها من أجل الثراء · كانت تعمل ممرضة نشطة بمنطقة الخطر ، يحبها الجميع ، ويحلمون بها · وقد رفضت ضباط المنطقة كما رفضت غيرهم · ثم حصلت على عقد مغر بالكويت · ولما « رفضت عائلتها أحلامها المسمومة » تزوجت أمين مسعود لاستخراج جواز السفر ، بعد أن أقلع عن شرب الخمر من أجلهـا : « وحيد ·· بلا أهل يحاسبونه أو يحاسبونها » · ويطلقها مسعود فى الكويت لتتزوج بدويا يهديه العربة التى يعمل عليها بخط « بنغازى ـ اسكندرية » بعيدا عن الاسماعيلية حتى لا يراه أحد ، وقد عاد الى الخمر من جديد · واذا كانت الرواية لم تتابع أخبار آمال بعد زواجها من البدوى ، فاننا نتوقع أن تمر بانقلاب آخر لتعيش كما تعيش زينب على الندم · نتوقع ·· لكن التيار قد يجرفهـا الى النهاية فتفقد نفسها الى الأبد ·

وهكذا تتأرجح شخصيات زمن الهزيمة واليأس بين البطولة والتردى · وتطلعات آمال الدمياطى لم تنشأ من فراغ · فهناك شىء فى تكوينها يجعلهـــا تقبل الهدايا المشتراه « من القروش الصغيرة » واعانات التهجير ، التى ضلت طريقها الى الأهل فى المهاجر · واذا كان جمالها هو سبب محنتها ، فان تعاطى الخمر كان المقياس الذى يحدد درجة حرارة أمين مسعود · ولم يكن غريبا انه عندما أقلع عنها تردى · وعندما عاد اليها « أفاق » ، فهرب الى طريق : « بنغازى ــ اسكندرية » ليظل دائما على الحدود ·

● ● ●

ويأتى النص الثانى ــ عن عرابى ــ فى الفصل الخامس قصيرا موجزا ، على لسان عباس أفندى الطيب : « أين أنت يا عرابى ؟ » لكن التساؤل يحشر وسط فقرة مشحونة بأسماء المدن والقرى : « نفيشة ، أبو صــوير ، القصــاصين ، التل الكبير (أين أنت يا عرابى ؟) العبارة (قف ·· أوراقك) ·· ثم اتجاه اليمين أبو حماد ، ثم يلقى بنـــا الأتوبيس بميدان أبو خليـــل تحت العربات المتكدسة تملأ جوفه ، أخترق الزحام بصعوبة بالغة ، الزقازيق ، الزقازيق · الناس ينتشرون فى كل اتجاه · يأكلون ، يشربون ، يثرثرون ، لا تعلمون بأيامنا الثقيلة هناك ، يودع أبناء المحنـــة بعضهم ، يفترقون ، يقفزون الى عربات أخرى تبلعهم الى زفتى ، طنطا ، المحلة ، شبين ، وبلاد الله الواسعة » · ويأتى النص الأخير فى الفصل قبل الأخير قصيرا موجزا أيضا ، وعلى لسان نفس الشخصية : « وهنا طعن عرابى » · وسط فقرة مشحونة بنفس الأسماء ولكن فى طريق العودة · بعدها مباشرة تأتى اشارة عابرة فى حوار سريع عن تدرب بعض القوات على العبور · وقبل ذكر أســماء البــلدان ، وبعد تدريبات العبور يدور الحوار عن حرق :

« اللنبى » حتى ينتهى الفصل برقص أبناء المدينة « حول دائرة النار المزروعة » • وكأن هذه الاشارات التى تقربنا من النهاية المرتقبة ، هى — فى نفس الوقت — بمثابة رد اعتبار لعرابى الذى وجهت اليه طعنة ما زلنا نعانى من آثارها •

عندما دخلت القوات البريطانية مدينة القدس•وقف الجنرال اللنبى قائد هذه القوات على احدى القناطر وقال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » • وهذه الانعطافة التاريخية الطويلة تفصح عن حقد استعمارى يجعل من حرب توسعية ، حربا دينية ، تماما كما فعل أسلافه الذين تمسحوا برداء السيد المسيح ، وهم يرجمونه بحجارة • هذا الجنرال البربرى كان الرجل الذى أرسلته بريطانيا العظمى الى مصر لكتم أنفاسها بعد الانتصارات الحربية على الرقعة الشامية والعراقية • وقد ترك الصراع بين الدخيل والأصيل على ضفة القناة تقليدا شعبيا مازال مستمرا حتى اليوم • ففى عيد شم النسيم يضع الأهالى دمى للجنرال اللنبى يطوفون بها أرجاء المدن للتجريس ، وهم ينشدون أغان معادية ، ذات ألفاظ جارحة — يحاول المهتمون بهذا التراث اعادة صياغتها الآن — تتناوله ، كما تتناول زوجته المتبرجة ، على طريقة الهجاء العربى القديم عند تعريضه بالنساء ، أو التعرض لهن حتى ولو عن طريق التشبيب• وفى نهاية المطاف يشعلون النار فى هذه التماثيل فى احتفالات شعبية بهيجة ، رمزا للتخلص من كل بغيض وكريه •

وقد انتشر هذا التقليد ، أو رددت أغانيه فى بعض المدن المجاورة للاسماعيلية وبور سعيد ، أو تلك التى هجروا اليها منذ الحرب العالمية الثانية • ولا أعرف ان كان من وحى الاحتفالات بعروس النيل ، أم من وحى أعيـاد بعض الأجـانب الذين كانوا يقطنون مدن القناة كما فى أعياد الميلاد والقياس فى الحالين مـع

الفارق ـ أم من عادة احراق العرائس الورقية بعد وخزها بالابر ، لابطال مفعول « السحر » ؟ أما اختيار يوم شم النسيم للقيام بهذا التحدى الجماعى ، فينبع ـ فى نظرنا ـ من حس وطنى عميق وأصيل ، لأنه عيد وطنى ، وليس عيدا طائفيا ٠

وفى هذه الرواية ، عقد الأهالى العزم على الاحتفال باحراق اللنبى وسط المحنة ، سواء فى مدينتهم أو فى المدن التى هجروا اليها ، رغم مخاطر اشعال الحرائق بمدينة المواجهة ٠٠ لا ليحرقوا هذه المرة الجنرال اللنبى وحده الذى استولى على فلسطين وسيطر على مصر ، وانما ليحرقوا ـ معه ـ كل الذين دنسوا أرض فلسطين ، ودنسوا أرض مصر : « فى المنتصف ترقد دمى كثيرة ٠٠ لكل من تكرهه الصدور ٠٠ هـذه دمية لجندى يهودى يحمل نجمة داود السداسية فوق ظهره ٠٠ دمية أخرى لوجه أصلع ، ذى عين واحدة ، وتغطى الأخرى عصبة سـوداء ٠٠ كتب تحتهـا (ديان ٠٠ ابن الكلب) ٠٠ دمية أخرى لعجوز شمطاء ، ذات شعر غجرى وعيون شريرة كتب تحتها (جولدا ٠٠ وكلمات بذيئة) ٠٠ دمى كثيرة لملوك الدم ذوى النجوم السداسية ٠٠ » ٠

فى هذا الفصل ـ قبل الأخير ـ المشحون بالرموز والاشارات ، رمز ثالث لليوم المرتقب : تمثال الصامدين ٠ وهذا التمثال يرجع تاريخ صنعه الى الفصل الرابع ٠ فى ذلك الفصـل تعرفنا على « شارع مصر » الذى يتسلل اليه رجال القبو فى الظلام ، لشراء لوازمهم ومشـاهدة التليفزيون بالمقـاهى ، وأخيرا الالتفاف حول السمسمية أمام « محل هاشم » ٠٠ « يتوجعون فى الأنغام الحزينة التى ترثى المدينة ٠٠ ثم يتمسحون فى أغنيات الأمل الباقى للأرض والوطن » ٠ وعلى مقربة منهم يقف هاشم يصنع تمثالا من شظايا العدو ومخلفات داناته ، والحاضرون يقدمون له ما استطاعوا جمعه

منها ، وقد وعده أحدهم بجناح طائرة «لكنهم يبتسمون له وهو يترنح» واتفقوا على أن يكون تمثال «الصامدين» ·وفى الفصل قبل الأخير يكتمل التمثال : « كل قطعة فى هذا النصب تحمل وثيقة ادانة لا تنتهى » ·· « اليد اليمنى ممتدة الى أعلى ·· الأصابع مشدودة ·· تحصر علامة النصر بين السبابة ·· بينما اليد اليسرى تتشبث بالرشاش المتدلى من أعلى الكتف · والساق اليمنى المرفوعة تهرس تحتها بعض نجمات (داود) المرسومة على أطراف الطائرات التى تم اسقاطها فى الجانب الغربى ·· » · وفى نهاية الفصل يتجمع أبناء المدينة أمام محل هاشم « بشارع مصر » ، ويلتفون حول تمثال الصامدين فى شكل دائرى واسع · وفى المنتصف ترقد الدمى · وعلى أنغام السمسمية تصدح فرقة « الصامدين » بالأغانى المناهضة لا للنبى « فيهلل ويرقص معها أبناء المدينة حول دائرة النار المزروعة ·· تحيط بالدمى جميعا ·· فى انتظار لحظة الخلاص منها ·· » ·

● ● ●

والتشبث بعرابى — رغم هزيمته — له مغزاه العظيم — فالمهم هو النضـــال بشرف من أجل الغـــاية الشريفة · وقد كان عرابى مناضلا شريفا ، أعطى كل ما يملك من قدرات فى اصرار واستماتة · وعلى مدى تاريخنا لم يهزمنا غير طعنات الخونة والجهلة · لكننا لم نيأس من عالم كهذا يعلى القوة فوق الحق ، ما دام فينا نفر كهؤلاء الشرفاء المخلصين الذين يمسكون بالشقاء ، فيتخذونه وســيلة لانتزاع الفرحة من الوجود بالروح المثابرة البناءة ، مهتدين بآثار الأسلاف ، ناظرين الى تماثيلهم ونصبهم ، فتماثيلنـــا ونصبنـــا تسكنها أرواح أبطالنا ، وتنطق — دوما — بكلماتهم ·

والكاتب يروى تاريخ مدينته المناضلة ، منـــذ بنائهـــا فى

« زمن السخرة الأخرس » حتى استشراف العبور (نراه يتحدث عن هزيمة « التل الكبير » وعن حرق تماثيل « اللنبى » · ونستمر فى مطالعة تاريخ المدينة من خلال الرشات السريعة الموحية والمقاطع الموجزة ، حتى نصل الى اليوم الخامس والعشرين من يناير ١٩٥١ ، عندما هاجمت قوات بريطانيا العظمى المعسكرة فى قاعدة القناة بأسلحتها المتطورة مبنى محافظة الاسماعيلية واستبسلت قوات « بلوكات النظام » بأسلحتها العتيقة فى الدفاع عن المبنى حتى أبيدوا عن آخرهم · فانتفضت القاهرة كالذبيحة فى يوم ساخط نتج عنه الحريق الرهيب · ومن بعدها ·· انتفضت المنطقة كلها انتفاضة تحررية عظمى أزهقوها بالانقلابات العسكرية المتتالية · والكاتب ـ كما سبق أن رأينا ـ ذو وعى سياسى ينفذ به الى أعماق الحدث ليستخرجَ دلالاته ـ وكان نافذ البصيرة حينما قال : « سجلنا لآبائكم من قبلكم ، دورهم البالغ الأهمية فى اطلاق شرارة التحرر الوطنى عندما وقفوا خلف رجال الشرطة فى معركتهم ضد الانجليز فى ٢٥ يناير ١٩٥١ ، ليزحف النضال الأكبر من عندكم ليشمل المنطقة العربية من حولنا » ·

وتتوالى الأيام القريبة المريرة · وتتسارع دقاتها ، وتحفر فى ذاكرة الشخوص التى لا تنسى موقعها من الشهر ، من الاسبوع ، من اليوم : « صباح الأحد ١١ يونيو ١٩٦٧ » ·· « مساء السبت ١٥ يوليو ١٩٦٧ » ·· « صباح الأحد ١٦ يوليو ١٩٦٧ » · وعن اليوم الأول يقول : « خرجنا الى شاطىء القناة ·· نفرش المرايات البيضاء ، نقيم معابرنا الأهلية ومحطات الاستقبال ، بعد ان نزفنا كثيرا فى جرح الوطن ، نحسب لدهاء العدو الزاحف خلف النكسة ، نتلقف بقايانا الشاردة ، نضمد الجراح والشرخ فى الصدور ، قليل من الخبز والماء ، بعض الكلمات الطيبة تمسح عن كاهلهم بعضا من مأساتنا ، نعبر ، نتوغل داخل سيناء ، نعود بعشرات الشاردين

فى ابتسامة رثاء ، ثم نسهر على الشط الغربى للقناة ، بدون سلاح ، لا نملك سوى أرواحنا ٠٠ خوفا من تسلل العدو وسط الذهول والصدمة ، لم يكلفنا أحد بذلك ٠٠ » ٠ وتذكرنا هذه الفقرة بما ورد بتقرير مونكرييف عن فيضان ١٨٨٧ : « ان لدى الفلاحين ـ اذا ما تركوا وشأنهم ـ فكرة طيبة جدا عما يمكن عمله » ٠

وما « القبو » : لا قصة مصر كلها من خلال تاريخ مدينة مكافحة القبو هو الاسماعيلية ، والاسماعيلية هى مصر ، ومن ثم فالقبو هو مصر تلك الفترة التى اغتيل فيها الأمن ، وسفكت دماء الكرامة ٠ القبو الخانق المظلم الذى تعيش فيه هذه المجموعة المقاومة ، غير مختلفة عن غيرها من مجموعات الأقبية الأخرى المنتشرة فى المدينة ٠ بل ان المؤلف يضفى على « القبو » معنى « كونيا » ، يعبر عن واقع « كونى » ٠ فعندما انتهى فتحى حسنين من تشييع جثمان والدته الى مثواها الأخير ، دخل الى غرفتهم بالعزبة وحيدا ، وتلفت حوله فاذا بالفراغ يملأ الدنيا « الكون قبو كبير » ٠

وقد رأينا أن المؤلف يلضم أسماء بلاده فى عناقيد حنان ٠ وتترى أسماء أخرى فى مواطن أخرى : « ما أن تدخل العربة التى تقلنا الى السلوم حتى أرتاح ، سيدى برانى ، مرسى مطروح (ننام هناك) ثم نواصل السير ، الضبعة ، العلمين ، الحمام ، برج العرب ٠٠ » ٠٠ « العجمى ٠٠ الدخيلة ٠٠ المكس ٠٠ ثم ٠ الاسكندرية ٠٠ الزحام ، الشوارع ، الناس ، لا يعرفون معنى الهجرة ٠ الحديث عنك بائع باقى المشوار حتى (الدلنجات) ٠٠ تخيلتك تحت التوتة ٠٠ تبحث عنى فى قلب خليل ٠٠ (هل ما زال اسمى محفورا فى قلبك يا فتحى ؟ ٠٠ » ٠ وهذه الأسماء لا تؤكد ـ فحسب ـ المستوى الواقعى للرواية ، وانما ـ أيضا ـ المستوى الرمزى للمكان ٠ ولا يؤثر فى هذا المستوى الرمزى ، اختلاف

المناسبة التى تذكر فيها مضاربنا ، بل ومرارة المقابلة لدى بعض الشخوص ، كما رأينا فى الفقرة السابق الاستشهاد بها على لسان عباس الطيب ، والأخرى على لسان زينب ، وكما نرى فى هذه الفقرة : « العربة تخترق ضباب الصباح ، توقظ الطبيعة بتغيرها العالى ، أركن وجهى الى الزجاج ، أرى المساحات الخضراء والحقول المستوية ، لا خندق فى أحشائها ولا قبو ، فلاح يداعب محصول أرضه ، بقرة تجر ساقية بعد أن ربطوا عينيهـا · بيوت طينية صغيرة ، شامخة ، لم تتصدع بعد ، تسحب حمـــارا فوق ظهره متاعها وصغارها ، طفل يقلب صفحات ما تحت شـجرة بعيدة ، رائحة سماد الأرض تعانق أنوافنا ، لها سحر خاص تلك المرة ·· ».

فهذه الفقرة تمثل الحنين الى الأرض ·· وهو حنين مغرق فى البساطة · اذ انه لا يحلم بالقصور واليخوت ، وانما ببيت طينى لم يتصدع ، وكتاب تحت شجرة · لكنها وسابقتيها تحمل – فى نفس الوقت – نوعا من العتاب والنقد السياسى عند عباس الطيب، والنقد الذاتى والندم عند زينب · وأخيرا ·· فنحن نرى فى هذا السلام قشرة أمنية كاذبة – وسط مناخ متوتر مدحور – ترقد تحتها قذيفة غادرة منزوعة الفتيل ·

● ● ●

وأهم الشخوص التى ساءت فى خط متنـــام دون أن يختل توازنها : مسئول الدفاع الشعبى والمثقف الثورى : فتحى حسنين · ورب الأسرة الطيب : عباس الطيب · وهما الشخصيتان الفعالتان فى تطور الحبكة · مع الأخير نتمزق – كما تمزق – لبعده عن زوجه وبناته ، بعد أن تركهن فى أرض غريبة ، لم تخل من الذئاب التى يحلو لها الاقتناص فى غيبة الراعى ، ورغم همومه الممضة نراه يغنى فى زحزحة الهم عن كواهل الآخرين · عندما سمع فتحى حسنين

ينتحب نحيبا مكتوما فى الليل لأن أنه لم تستقر فى مقابها بالمهجر ، استضافها مع أسرته · وكانت فرحة الأسرة بهـا فرحة مصرية صميمة · وقد حلت مشكلة عباس بعد زواج فتحى من احدى بناته · اذ تناوبا الاقامة بين أفراد العائلة المهجرة · أما الشخصيتان الثابتتان ، فهما : « الأرنب » الذى يخاف من مجرد الطرق على أبواب القبو و « أبو الغيط » الفضولى الثرثار الذى ينقل أسرار المدينة من مكان الى مكان لمجرد المسامرة · وقد تعرض للترحيل فى مسار الرواية ، ثم تم ترحيله فى نهايتها ، مع أم السيد القوادة ، وعبد الراضى البقال ، وغيرهم من غير المرغوب فى تواجدهم بالمنطقة فى الفترة المقبلة ، التى لم تحدثنا عنها الرواية ، وان كانت قد جهزت لها ·

ويتألف كل فصل من فصول هذه الرواية القصيرة من عدة مقاطع ، تأتى على لسان عدة أصوات من بينها صوت المؤلف · وسـوف يجهد القارئ نفسـه فى الفصلين الأولين ليتعرف على شخصية راوى كل مقطع · ويبدو أن المؤلف قد تعمد ذلك · فالمهم هو ما يحدث لا على لسـان من يروى الحـدث · الجرم عظيم · والمنكوبون سواسية · لكن ليس معنى ذلك أن شخوص الرواية مجرد أرقام أو رموز كمـا تذهب بعض الأعمال الجديدة · انهم شخوص حقيقية ذات ملامح حقيقية · تتضح الملامح رويدا رويدا عندما يتبلور جنين الحبكة فى رحم الفصل الثالث · وتحدد الرواية لنفسها مسارا يرتكز على تنامى الحدث من خلال الشخصيتين الفعالتين فى تطور الحبكة · وكان الفصل الأول عن أمين مسعود والثانى عن عباس·ومع ذلك··ورغم أن فتحى حسنين قد أضحى الشخصية المحورية التى تتجمع فى بؤرتها خيوط العمل ، فاننا لن ننسى ــ مهما نسينا ــ شخصية مسعود الدرامية العملاقة التى أثرت العمل وصبت فى النهاية فى وعاء فتحى عن طريق المقابلة · كان مسعود

يعى الفرق بينهما وعيا تاما وكاملا · ولهذا فعندما سألته زينب وهما فى الطريق من بنغازى الى الاسكندرية عن أسباب عدم سفر فتحى معه الى الكويت ، قال : « لا يحب مثل تلك الأمور ·· يعشق الارض هناك » ·

ويطالعنا عشق الأرض فى مشهد جماعى بالفصل الأخير · فعندما تقدم الموكب الجنائزى القادم من الزقازيق الى مشارف الاسماعيلية ، واصطدمت عيون النساء » باللافتة الكبرى الحزينة تحمل اسم العشق » حتى انطلقن فى الصراخ واللطم . فبكى الرجال معهم « مصرع الأيام الجميلة على أرض الحب » ·· « حتى خضرة الزرع والأشجار على جانبى الطريق قد كساها شحوب غريب » ·· « الزرع أيضا يحس بالجفاف » · ويعبر الموكب كوبرى الجلاء فى طريقه الى العزبة . فتصطدم العيون مرة أخرى بأطلال مصنع الترانزستور · وعلى الجانب الآخر للترعة أنقاض وحطام شركة قنالكترون . فيولولن من جديد . والرجال يحجبون الدموع تلك المرة · وبعد انتهاء الجنازة يجلس النساء تحت توتة خليل ، ينتظرن العربات لتقلهن مرة أخرى الى المهجر « يحلمن كثيرا بالعودة للأبد . كم صارحن الرجال برغبتهن فى البقاء خلسة فى أرض الأيام الخضراء » ·

ويلعب الراديو دورا هاما فى حياة شخوص القبو : « يومناليل داخل القبو » · فى غياب صياح الديك يهتدون الى مطلع النهار من خلال أخبار الصباح : « عندما نتأكد من جديد أننا مازلنا أحياء » · الراديو هنا شخصية أخرى تضاف الى شخوص القبو : « نقلنا الراديو على الفور لورشة اصلاح فى قبو آخر ، ونقلنا المريض الى المستشفى فى البدروم المقابل » · واذا كان واقع الحياة المعاصرة يفرض وسائل الاتصال فرضا ، سواء فى أيام الحرب أو السلم ،

ليشكل المعارف ويكون المعتقدات • فهو هنا وسيلة الاتصـــال ـ الوحيدة ـ بالعالم الخارجى ، وهم يعايشونه معايشة حميمية تؤثر فى بناء الرواية : اذ نرى المؤلف يختتم بعض الفصول أو يبدأهـا بالأغانى والأناشيد ، كما يبث الاغانى فى ثنايا الفصول •

وكثرة الاغانى العاطفية عندنا وسرعة انتشارها ، لا يعنى أننا قوم غارقون لشوشـــتنا فى الحب •• فى العشـــق والغرام والتتيم والوله والوجد • حقيقة أننا نتقبل هذه الأغانى فى البداية على أنها مناجاة عاشق لمعشوق • لكن همومنا الحياتية تحولهـــا فى وجداناتنا الى مسارات أخرى • مسارات الهمـــوم الشـــخصية الفردية المدفونة داخل كل منا ، عندما نتمزق مع عباس الطيب فى الفصل الخامس عند زيارته لأسرته بالمهجر ، وقد اطلعنا على الذئاب التى تحيط ببناته ، والانهيارات التى أصابته وأصـــابت أسرته •

ينهى المؤلف الفصل بهذا المقطع :

(وابتدى •• ابتدى المشوار

وآه يا خوفى •• من آخر المشوار

جنه ولا نار ••

آه يا خوفى ••)

ويجسد هذا المقطع من الأغنية العاطفية هموم هذا الرجل • ويزداد مذاق المرارة فى حلوقنا عندما نقابل بين الحياة العاطفية فى الأغنية المشهورة ، والحياة المأساوية فى الواقع المهـــان ، التى تعبر عنها حقيقة •• وبصدق وحرارة ، نفس الكلمات •

والراديو كما هو معلوم قد يكون مرشدا ، أو مضللا ، أو لاهيا عما يحدث • فى الفصل الرابع نجابه بمرارة من نوع آخـــر •

تتسم فيها السخرية بالسخط لا بالحزن · يدور الحديث فى هذا الفصل عن الهموم التى انبثقت بعد الجرح الغائر · فى كل مكان نزح اليه المهاجرون وبدت سوق تسمى « سوق المهاجرين » تباع فيها منقولاتهم التى استطاعوا نقلها بأبخس الاسعار · وكان بعض المهجرين أنفسهم « يلتذون » بشراء عفش النكسة · وآخرون يسرقون البيوت فى المدينة المهجورة · وثمة مقامر يقبع بين أطلال المدينة ، يتصيد « ضعفاء زمن النكسة » الذين يقامرون حتى بعقارات الجدود · كما تخلخلت العلاقات الأسرية ــ وقوضت أركان البيوت الآمنة ، اذ أصبح المرء يطلق امرأته من أجل الحصول لها على بدل تهجير كمطلقة ، واقتنصت بعض الزوجات اللاتى ضقن بأزواجهن الفرصة وتزوجن بغيرهم · ويصرح أحدهم فى نهاية الفصل : « طفى الراديو الى عندك خلينا ننام » · وكاد الراديو ينشد :

أمجاد يا عرب أمجاد

فى بلادنا كرام اسياد

تستند « حبكة » الرواية الى حرب اليمن تلك التى تعتبر المقدمة المباشرة لهزيمة ١٩٦٧ · فقد استشهد « خليل شقيق فتحى » فى هذه الحرب ، فمنحوا أسرته خمسة أفدنة تعلقت بها قلوبهم : « كان أخى يحب التوت ·· زرعت أمى تلك الشجرة بعد أن تسلمنا الأرض ·· سمتها باسمه ·· فجذورها تتغذى من لحمه ·· تقول أمى » · وهى شجرة كبيرة تظلل بيتا صغيرا من اللبن · وقد حفر فتحى على « جذعها الاكبر رسم قلب يرشقه سهم » اسمه فى الطرف الأسفل واسم أخيه فى الأعلى · وسوف تصاحبنا هذه الشجرة إبتداء من الفصل الثالث حتى الفصل الاخير · فى الذكرى السنوية لاستشهاد خليل تخرج أمه البرواز الذى يحمل صورته وتعلقه الى جذع الشجرة فوق القلب · ويتحدث أبوه والرجال

يحتسون الشاى عن بطولات ابنه الخارقة . فاذا ما سأله أحدهم عن مصدر هذه المعلومات ، ذكر أن ولده يأتيه فى المنام و « يقص عليه ما يرويه ، فنصب الفلاحون الشهير « وليا » وبعد دور الشاى الرابع يتكلمون فى أمور الدنيا والسياسة ، ليضع المؤلف يده على جرح آخر من جروح تاريخنا المعاصر النازفة . ونحن نعتبر هذا الجرح السبب الرئيسى لقرار دخول حرب اليمن . يقول الشيخ مصطفى الذى قضى معظم حياته فى السجن ، ويتجنب الناس مجلسه لطول لسانه : « قلت الوحدة لن تنفع معهم .. هم ناس تجار واحنا فلاحين ، لازم حد فينا يتغير .. وبعد دور الشاى السادس يخرج كل الشباب والأطفال من المجلس .. « الحديث الآن خاص بالكبار فقط ، والنساء عن بعد يوارين ضحكاتهن ، يعرفن ما وراء هذا الحديث ، فيسبقن الرجال الى فراشهن » .. وهكذا يتدرج بنا الفنان فى انسيابية عذبة من الذكرى الى النسيان ومن الموت الى الاخصاب .

ويموت الأب بعد نهش أربعة أفدنة من لحم الشهيد ، ولا تبقى لفتحى سوى أمه ، ذات يوم لم يجد اسم خليل على الشجرة فبكى، ووعده برعاية الأم فعاد . وعندما أحب ابنة عمه زينب حفر اسمها بجوار اسمه « حتى يعرف خليل كم أحبك » ، لكنها تطير الى ليبيا فيخلع اسمها من قلبه ومن قلب خليل ، ويحفر اسم نادية ، واسم مصر : « بعد أن قام برى الأرض ، عاد الى قلب (خليل) تحت التوتة . حفر اسم نادية الى جوارى فى طرف السهم الاسفل . وحتى لا يظل خليل وحيدا حضر الى جانب اسمه فى أعلى السهم .. اسم مصر .. » . عناقيد الحنان تتجمع هنا كلها فى حبة واحدة ، تحفر فى القلب على شجرة خليل .. شجرة الخلد . كما رفعت علما فى وسط مدينة الاسماعيلية : « شارع مصر » . وقد أخذ عباس الطيب على عاتقه مسئولية العناية بشجرة خليل أثناء غياب

فتحى مع الأسرة بالزقازيق . وتضع نادية ذكرا يسمونه : « خليل » .

وتنتهى مراسم العزاء بسرعة فائقة ، وكل المؤشرات تشير الى أن حدثا كبيرا سوف يحدث . ويتلقى فتحى حسنين منشورا سريا - أثناء تقبله العزاء - يكلفه ببعض المهام ، فيشد على يد عباس الطيب .. ثم ينطلق فى طريقه الى حيث ينتظره الرجال . يمر من أمام شجرة (خليل) .. القلب مازال محفورا .. يلقى التحية على النساء تحتها .. تصطدم عيناه بعينيها .. (أحبك يا نادية .. لم يعد لى سواك وخليل الصغير .. يلمحها تضمه الى صدرها .. تخرج ثديها تلقمه .. تبتسم له .. يبتسم » .

بالابتسام .. بالأمل .. تنتهى الرواية القصيرة ، وتستمر المسيرة الطويلة . وخليل الصغير الذى سوف يكمل المشوار مازال لا يعى من أمره شيئا .

●●●

ولأن أبطالنا ليسوا من الأباطرة والملوك العظام كما هو الحال عند سوفوكليس أو شكسبير ، فلغتنا ليست رصينة ، ومفرداتنا ليست مقدسة . انها لغة الحياة اليومية العادية . وقد استطاع المؤلف أن يعايش هذه اللغة ليستخرج منها لغته الخاصة على منوالها . ولعل أهم خصائص أسلوبه ، الجمل المتقافزة التى تنتقل فى سرعة وحرية مطلقة فى الزمان والمكان فتبدو مثل قطرات الندى .. قطرات سرعان ما تتجمع لتصبح شلالا متدفقا من الدم ، فى صور جديدة لا تقتات على ابداعات غيره . وان لاحظنا بعض التراكيب التى لم نرض عنها ، فمشوار الابداع طويل . وهو كفيل بزحزحتها عن كاهل المزيج العذب من

العامية والفصحى · كما وقع وهو فى حمية الابداع ، فى أخطاء غير مقصودة مثل قوله : « فى تلك الغرفة كان ميـــلاده الأول ·· » والمقصود هو « ميلاده أولا » أو « الولادة الاولى » · وقوله : « عندما يغلق عبد الراضى أبواب دكانه مبكرا ، فهذا يعنى أن بعض الجنود قد مروا به لشراء ما تشتهيه أنفسهم الفقيرة ·· » والمقصـــود ـ بالطبع ـ (أنفس الفقراء · ونأخذ عليه استعمال تعبير « الصمود والتصدى » فى زمن لم يكن قد ظهر فيه ، خاصة وقد أفرغ ـ بعد ظهوره ـ من محتواه ، وأصبح يمثل عندنا الغالبية العظمى نقيضه: « الجمود والتردى » لا « الصمود والتصدى » ·

ولا ندرى لماذا كان لقب آمال « الدمياطى » ؟ ليس لهذا اللقب من تفسير فى الرواية · ويبدو أن المؤلف كان ينقـــل عن الواقع بصدق أخلاقى · ولحسن الحظ لم يؤثر هذا الصدق الأخلاقى على الصدق الفنى · وأعطى مع ـ أسماء البلدان ـ للعمل بعدا أعمق ، كما أنه من غير المعقول أن تنبت شجرة « التوت » الكبيرة فى تلك المدة الوجيزة ، حتى لو افترضنا ان الشقيق قد استشهد فى بداية حرب اليمن · ومع ذلك ، ترانا ـ وعن طيب خاطر ـ أمام هـــذه الدفقة الغنية المستمدة من الأجواء الاســـطورية ، تبتلع هـــذه الملاحظة ، وننظر الى الشجرة باعتبارها رمزا يتغذى من لحم الشهيد لينبت ـ فى أغلب الظن توتا أحمر ·

ويحز فى نفسى أن أرى « منظمة فتح » الداعيـــة الى ثورة « عربية » حتى النصر ، تتخذ لها علامة للنصر غير عربية · فيطالعنا « أبو عمار » فى كافة لقاءاته ، شاهرا السبابة والوسطى ليشكل الحرف الأول من كلمة النصر اللاتينية · كيف نتمســـك بعروبة الثورة ، ونحن نرفع اشارة أجنبية ؟ ثم كيف نحارب قوما ونحـــن نتخذ علاماتهم أعلاما لنا ؟ ويحز فى نفسى ـ أيضا ـ أن تنتقل هذه

الصورة الى الفن كما رأيناها فى « تمثال الصامدين » . فالفن هو التعبير الأصيل عن وجدانات البشر ، لا عقول المقلدين .

لكن المؤلف يرفع فى بداية عمله رمزا موحيا عظيما ، يوحد الزمان فى المكان ، ويجسد الصراع الدموى الأبدى بين قوى الشر ونوازع الخير ، واصرارنا الدائم — عبر كافة عصور التاريخ — على التحدى . وصل اليهود الى ضفة القناة : « ولكن العذراء مازالت ترفع وليدها .. ليتصدى لهم » .

وفى نهاية العمل ، تضم الأم « وليدها » الى صدرها .. تلقمه ثديها .

الرواية مليئة بالصور الحبلى والاشارات المثمرة . وقد حاولنا أن نتابع شلال الدم من خلال الرشات التى تضمنها العمل عن أيامنا النازفة ، لأنها تشكل — فى نظرنا — المعنى الكلى للرواية . المعنى الذى يحدد مسيرتنا حتى النهاية . ولم نشأ أن نحيد عن هذا الخط حتى لا يضيع المعنى الكلى فى خضم دراسة الجزئى . ولهذا ترانا قد تركنا جزئيات كثيرة لتأملات القارىء . وأحسب أنه سوف يخرج منها بتحليلات خاصة ، قد تقصر أدواتنا عن الوصول اليها .

فى أعدادنا القادمة

الشاطر حسن .. يخيب	عبد المنعم الباز	د. محمد حسن عبد الله
قصاصات حب	اسماعيل على	ا. محمد قطب
نقوش الدم	رجب سعد السيد	ا. محمد السيد عيد
الصعود الى القصر	مصطفى الأسمر	ا. سامى خشبة
حكاية الديب رماح	خيرى عبد الجواد	ا. ادوار الخراط
تاريخ يؤرقه الظما	مشهور فواز	د. انس داود
مهزلة عائلية	جمعه محمد جمعه	ا. جلال العشرى
بقايا انتظار	عبد الفتاح منصور	د. عبد القادر القط
تاملات فى وجه الاتكى	عبد الله السيد شرف	د. يسرى العزب
.. والفجر	جمال نجيب التلاوى	د. محمود الحسينى
اعدام قيس بن الملوح	محمد عبد العزيز شعب	د. فتوح أحمد
ليضا .. يكون العشق	عبد المجيد احمد	ا. محمد ابراهيم أبو سنة
.. وعائد اليك	المنجى سرحان	ا. احمد سويلم

اشراقات أدبية :

صدرت من هذه السلسلة :

١ - شوارع تنام من العاشرة	(قصص)	أحمد محمد حميده
٢ - باب الريح	(قصص)	نبيه الصعيدى
٣ - الدم ٠٠ وشجرة التوت الأحمر	(رواية)	محمد عبد الله عيسى

« القبو »

العدد القادم :

وقائع موت الجياد	(شعر)	عصام الغازى

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف
- مكتبات الهيئة
- المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة
- مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم
- منافذ التوزيع فى مقار وفروع الثقافة الجماهيرية وهى كما يلى :

ـ الوادى الجديد ۰۰۰ الداخلة والخارجة

ـ البحيرة

ـ المنيـا

ـ سوهاج

ـ بور سعيد

ـ دمياط

ـ فارسكور

ـ القليوبية (بنها)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/١٥٦٢

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٢٤٣ ـ ٧